

رواية

معبود الأبدون

مريم توركان

اسم العمل: **معبد أبدوون**
اسم الكاتبة: **مريم توركان**
نوع العمل: **رواية**
تدقيق لغوي: **مريم توركان**
تصميم الغلاف: **مريم توركان**
تنسيق داخلي: **مريم توركان**

الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا
أَسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ
وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ"

صدق الله العظيم.

الآية رقم 14 من سورة فاطر

الإهداء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
" إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا
تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " (175)

صدقَ اللهُ العظيم

سورة آل عمران.

الفصل الأول

جلس الراوي وحولهُ الصبية، يسألونه
إكمال ما ابتدأه من حديث، لكنَّهُ لم
يستجب لهم، كرّروا عليه حتّى تتهّد ثمّ
تابع: حسناً، ولكنّ ليس قبل أن
تعدوني.

تساءل الصبية: وبماذا نعدك يا مولانا؟
ردّ الشيخ ببسمة: أن تجعلوا الهدف من
مروياتي لكم هو أخذ العبرة.
ردّ الجميع بصوت واحد: هو ذاك يا
مولانا.

الراوي: حسناً، حسناً.

بعد أن تزوّج عابدين بآمنة ابنة الشيخ
زكريا _ عام ألف وتسعمائة وثمانية

وأربعين، تغيّرت حاله للأفضل، فصار
مُصليًا، كثير الذكر لله ربّ العالمين.

صحيح أنّ الطبع يغلب التطبّع، لكنّ
الأصح أنّ من أحبّ أحدًا اقتدى به، وهذا
ما حدث مع عابدين حين سَكَنَ حُبّ آمنة
قلبه.

عابدددين.

نعم يا آمنة، أهنأك خطب ما؟

آمنة: أنادي عليك ولا تسمعي!

عابدين: خيرًا إنّ شاء الله.

آمنة: ما بك؟

عابدين: إخوتي يا آمنة.

آمنة: ماذا فعلوا يا ابن قلبي؟

عابدين: قد جرحوا قلبي بالسنتهم.

أَمْنَةٌ بَعْدَ أَنْ هَبَطْتَ دَرَجَ السُّلَمِ المَصْنُوعِ
مِنَ اللَّبَنِ: لَا تَهْتَمِّ لِشَأْنِهِمْ يَا أَبَا زَيْنَبٍ.

عَابِدِينَ: دَائِمًا مَا يُشْعِرُونَنِي بِالْقِلَّةِ، رَغْمَ
أَنْتَنِي قَدْ أُعْطِيتَهُمْ مِنْ عُمْرِي سَنِينَ، لَمْ
أُبْخَلْ عَلَيْهِمْ بِجَهْدٍ وَلَا مَالٍ.

أَمْنَةٌ تَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ بَحْنَانٍ: أَصِيلٌ أَنْتَ
يَا أَبَا زَيْنَبٍ.

عَابِدِينَ رَافِعًا رَأْسَهُ وَقَدْ تَسَاقَطَ دَمْعُهُ:
طِيلَةٌ عُمْرِي وَأَنَا أَجْبِرُ خَوَاطِرَهُمْ، وَفِي
الْمُقَابِلِ يَقُومُونَ بِكَسْرِ خَاطِرِي.

أَمْنَةٌ تُشَارِكُهُ الدَّمْعَ: دَعَاكَ مِنْ ذَلِكَ
حَبِيبِي، كُلُّهُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ عِنْدَ اللَّهِ،
لَا شَيْءَ يَضِيعُ عِنْدَهُ يَا أَبَا زَيْنَبٍ.

عَابِدِينَ: وَنِعْمَ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

آمنة مُتسائلة في تردّد: عابدين.

عابدين: خيرًا يا أمّ زينب.

آمنة: فرح بيت أبو خميس غدًا، هل

ستذهب مع إخوتك؟

عابدين: لن أذهب يا آمنة، يكفي ما

يفعلونه بي من قِلّة وأنا معهم.

آمنة: كما تُحبّ حبيبي.

إنقضى الخميس وأتى يوم الجمعة.

بينما يتجهز بيت أبو خميس لزفاف

سعيد _ الابن الأكبر لأبي خميس، هناك

حرائق تشتعل ببيت أبو المكارم؛ حيثُ

عابدين وإخوته.

قامت الدنيا ولم تقعد حين علّم الإخوة أنّ

عابدين لن يذهب معهم، لعهدهم به طوع

أمرهم مُذ ولادته، فكيف يجروُ على فعلٍ
كهذا؟

أرسلوا في طلبه ليُبرهنَ لهم عِلّة رفضه
الذهاب معهم إلى الفرح.

أخبرتهُ آمنةُ أنّ يحيى ابن أخيه الأكبر
ينتظره خارج الغُرفة، قامَ من رُقاده
وأسرعَ إليه.

السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته.

عابدين: وعليكم السلام ورحمة الله
وبركاته، كيفَ حالكَ يا يحيى؟

يحيى ببسمةٍ صافية كَبشَرتَه البضاء:
بخيرٍ يا عمّي، قد أرسلني أبي في طلبك.

عابدين وقد تغيّرَ لونه: خيرًا يا لَدي؟

يحيى: قد اجتمع هو وعمّاي ولّيم
وشّمس، وأزواج عمّاتي بالمضافة، ثُمَّ
أرسلني في طلبك.

عابدين: لمّ؟

يحيى: الله أعلم عمّ.

ثُمَّ تركه وعادَ إلى حيثُ الجمع
بالمضافة.

غُرْفَة رَحْبَة بُنِيت مِنَ اللَّيْنِ؛ لَتَكُونَ رَطْبَة
فِي حَرِّ الصَّيْفِ، دَافئة فِي بَرْدِ الشِّتَاءِ،
مُزَيَّنة بِلَوَحَاتٍ مِنَ الْقِمَاشِ، وَمُلَوَّنة
جُدْرَانَهَا بِأَلْوَانٍ مُتَنَاسِقَةٍ إِلَى حَدِّ مَا.

بِهَا أَرْبَعَة أَرَاءُكَ، مَكْسُوءَة أَرْضِيَّتِهَا
بِمَفَارِشٍ تُشَبِّهُ السَّجَادَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ.

ماذا يعني أنّه لن يحضر فرح بيت أبو
خميس؟

قالها عزّ الدين، الأخ الأكبر لعابدين،
بينما باقي الإخوة يلتزمون الصمت في
حضرته.

لحظاتٍ وقد حضرَ عابدين، ألقى السلامَ
عليهم وجلس.

أصحيحُ ما قد سمعتهُ عابدين؟

عابدين: وما الذي سمعتهُ أخي؟

عزّ الدين وقد تغيّرت ملامحه إلى

الغضب: أترد على سؤالي بسؤال!

عابدين: لم أقصد أخي، لكنني لا أعلم

عن ماذا تتحدّث؟

عزّ الدين: عن فرح بيت أبو خميس.

عابدين: هكذا أفهم، صحيح أخي، لن
أستطيع حضور الفرح.

عزّ الدين: خيرًا يا أبا زينب؟

عابدين: مُرهق بعض الشيء أخي.

عزّ الدين وقد نظرَ للحضور: حسنًا،
ليسَ عيبًا أن يُصيبك الإرهاق، لكنّ
العيّب أن تشـتـكي منه؛ إذ الشـكوى
للنساءِ فقط، أمّا الرجال فالتحمّل من
طِباعهم.

عابدين: ماذا تعني يا أبا يحيى؟

عزّ الدين: أعني أنّك ستأتي معنا، سواء
أكنتَ مُتعب أم غير ذلك!

لم يستطع عابدين الوقوف في وجه عزّ
الدين بعد أن أصدر قراره.

عادَ لآمنةَ حزينًا، مهمومًا، وكأنَّه قد ملكَ
زرعةً خضراءَ جاءتْها ريحٌ عاصفٌ
فاحترقت!

تتهدَّ الراوي ثمَّ قال: حتَّى الحُبِّ لا يُعتدُّ
به حينَ تطرقَ الفواجعُ أمانَ القلوب!

لم يفهم الصبية مُراد الشيخ فسألوه
التفسير، لكنَّه لم يُعطهم إيَّاه ووعدهم
بفهمه من سياقِ السرد.

أنهتْ آمنة تصفيف شعر زينب، وأمرتها
بالذهابِ إلى بيتِ جدِّها زكريا حينَ رأت
عابدين.

اقتربَ من الفراش فأسقطَ جسدهُ عليه،
ويكأنَّه يسقطُ حملاً ثَقِيلاً يُريدُ التخلصَ
منه!

جلست آمنة بجواره تربتُ على يديه
بحنانٍ بالغ، وتمسحُ على رأسه بعطفٍ
ولطفٍ.

ماذا حدث يا أبا زينب؟

عابدين: غُصبتُ على الذهابِ معهم إلى
بيت أبي خميس.

آمنة: لا تحزن ولا تعقل همًّا، ستذهب
معهم دون أن تحضر.

عابدين: كيف يا أمّ زينب؟

آمنة: ستذهب ولكن لن تحضر الفرح!

عابدين: هل سأُعطي جسدي ببودة
العفريت؟

ضحكت آمنة ثم تابعت: لا يا أبا زينب،
لن تُعطي جسدك ببودة العفريت، ولكنك

ستذهب معهم وتجلس دقيقتين، ثُمَّ
تستأذن من أبي خميس في الانصراف
وتأتي.

عابدين وقد عادت له بسمته: يا لها من
فكرة رائعة!

سلمت وغنمت ودُمت لي أم زينب حبة
القلب ونور العين.

آمنة ببسمة صافية وصوت حان: سلمت
لي عبود.

عابدين مُندهشًا: عبود!

لم أسمعها منذُ زمن.

آمنة: شُغلتُ عنك حبيبي، لكن قلبي لم
ينشغل عنك أبدًا.

عابدين: لثُسامحيني آمنة؛ وددتُ لو
أسكنتك قصرًا يليقُ بمكانتكِ ومقامكِ، لا
غُرْفَة واحدة مَبْنِيَّة من اللِّين، لكنْ ليسَ
لي من الأمرِ شيءٌ، فمالي قد أخذهُ
إخوتي دونَ أنْ يتركوا لي ما أقتات بهِ.

آمنة: هذهِ الغُرْفَة هي قصري ما دامت
تجمعنا.

عابدين: أينَ ذهبتِ زينب؟

آمنة: إلى بيتِ جدّها زكريا.

عابدين: بَارِك اللهَ لنا فيه، وأعاني على
ردِّ معروفه.

ذهب عابدين مع إخوتهِ بعدَ أنْ بدَّلَ
ثيابه، وما أنْ رَأَهم أبو خميس حتَّى قامَ
لهم من مجلسه، رحَّبَ بهم وضايفهم.

صعدَ الشيخ زكريا سطح المسجد؛ ليؤذن
لصلاة العصر.

لحظاتٍ ورفَعَ أذانَ العصر بصوتهِ
العذب، وما أن سَمَعَ عابدين الأذان حتّى
هتّأ العريس ووالده، ثُمَّ أسرعَ لتلبيةِ
النداء بالمسجد.

غضبَ عزّ الدين من فعلِ أخيه لكنّه قد
كظمَ غيظه.

خلعَ نعليه ودلفَ المسجد حاملاً إِيَّاهُما؛
خشيةَ السرقة، رَأَهُ الشيخ زكريا فهشَّ
لَهُ وبشَّ.

قَبَّلَ عابدين يُمنّاهُ وسألهُ الدُّعاء لتفريج
همّه.

تبسمَ لَهُ الشيخ زكريا وأضاف: مالي
أراكَ مهمومًا يا أبا زينب؟

عابدين وقد سقطت دمة حبسة رَغَمًا
عنه: مُتَعَبٌ أَنَا يَا عَمِّي الشيخ زكريا.

الشيخ زكريا بعدما ربت على كتفه: لا
تعتل هَمًّا وَاللَّهُ كَافُكَ يَا وَلَدِي.

عابدين مُبتسمًا: وَنِعَمَ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.
صعدَ الشيخ زكريا سطح المسجد ليُعلن
إقامة الصلاة.

فرغَ عابدين من صلاة العصر وجلسَ
يذكر ربّه، ذهبَ النَّاسُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ،
بينما الشيخ زكريا قد شاركهُ الجلسة.

هو الغنيّ، فَإِنْ كَانَ الْفَقْرُ هُوَ سَبَبُ
حُزْنِكَ، اسألهُ بِاسْمِهِ هَذَا وَحَاشَاهُ حَاشَاهُ
أَنْ يَخْذَلَكَ.

رفع عابدين رأسه وتبسم له قبل أن
يُضيف: مالي سواه يا عمي الشيخ
زكريا، أحبه بكل ذرة فيّ، حاشاه أن
يظلمني؛ بل هو المُنعم المُكرم المَنَّان،
الذي أكرمني وأنعم عليّ بالكثير، لكنّ
الظلم من البشر للبشر.

هزّ الشيخ زكريا رأسه في إشارة منه
على الاهتمام بما يقوله عابدين.

عابدين وقد ترك العنان لعبراته: إخوتي
قد ضيّقوا عليّ حياتي يا عمي الشيخ
زكريا، أصبحت كالعائش في كابوس، لا
هو قادر على الاستيقاظ ولا الكابوس
ينتهي!

الشيخ زكريا: ماذا فعلوا بك يا ولدي؟

عابدين: قد أخذوا ما أخذوا من عمري،
وظلموني بميراث أبي، ومؤخرًا يُحقِّرونَ
من شأني.

الشيخ زكريا: أنتَ مُمَيِّزٌ يا ولدي ببياض
قلبك، وطيبتكِ الظاهرة للقاصي والداني.

عابدين مُقَاطِعًا: طيبتني هذه هي سبب
تعاستي يا عمي الشيخ زكريا، أصبحتُ
أُعَيِّرُ بها من قِبلِ إخوتي.

الشيخ زكريا: لا يُحْزَنُكَ قولهم، هُم
مُفْتَقِرُونَ لما تملكه، لذا يُحَاوِلُونَ التقليلَ
من شأنك؛ لإرضاءِ نقصهم.

عابدين: ما العمل يا عمي الشيخ زكريا؟

الشيخ زكريا مُبْتَسِمًا: فَوِّضْ أَمْرَكَ لِلَّهِ،
وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ.

عابدين: ونِعْمَ بِاللّٰهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

عَادَ عَابِدِينَ إِلَى الْبَيْتِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى
الْمَغْرِبَ، لِيُفَاجَأَ بِأَخِيهِ عَزَّ الدِّينَ وَاقِفًا
أَمَامَ غُرْفَتِهِ.

تَرَاجَعَ عَابِدِينَ خَطَوَتَيْنِ لِلْخَلْفِ، لِيَتَقَدَّمَ
مِنْهُ عَزَّ الدِّينَ، وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ
بِقُوَّةٍ.

عَزَّ الدِّينَ: لِمَاذَا غَادَرْتَ الْفَرَحَ يَا أَبَا
زَيْنَبٍ؟

عَابِدِينَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا: سَمِعْتُ الْأَذَانَ
فَقُمْتُ أَصَلِّي.

عَزَّ الدِّينَ: وَنَحْنُ أَيْضًا نُصَلِّي يَا عَابِدِينَ،
فَلَا تَحْسِبْ نَفْسَكَ الْوَحِيدَ الْمُسْلِمَ!

عابدين: لم أقصد يا أبا يحيى، لكن عمي
الشيخ زكريا قال إن سيدنا النبي صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: إِنَّ مَنْ أَحَبَّ
الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها.

عز الدين: عليه الصلاة والسلام، حسناً
يا أبا زينب، لدينا واجب عزاء في الغد
بالعزبة التي بجوارنا، بعد العصر تكون
قد تجهزت.

عابدين: كما تريد أخي.

مضت الأيام وتضاعف الفقر، زاد عمر
عابدين عاماً ليُتمَّ به الخامسة
والعشرون، ولا زال قاطناً بغُرفته التي
ضاقت عليه ببيت أبيه.

نظر حوله فرأى أنه لا مكان له بين
إخوته، شعر وكأنه هواء لا يرى ولا

يُسَمِّعُ، تَعَاظَمَ الْحُزْنَ بِقَلْبِهِ حَتَّى أَكَلَ
جَسَدَهُ الْقَوِي، وَتَعَاظَمَتِ الْأَفْكَارُ بِرَأْسِهِ
حَتَّى جَلَبَتَ لَهُ الْأَرْقَ فَحَرَمَتْهُ النَّوْمَ.

كَانُوا يَبْتَاسِمُونَ فِي وَجْهِهِ سَابِقًا، حِينَمَا
كَانَ يَعْمَلُ وَيَكْدُّ عَلَيْهِمْ، فَيُسَافِرُ هُنَا
وَهُنَاكَ حَتَّى سَافَرَ خَارِجَ الْقُطْرِ
الْمِصْرِيِّ؛ لِيَأْتِيَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُونَهُ مِنْ قَبْلِ.

قَدْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ بِكَدِّهِ هُوَ، أَضَاعَ مَنْ عُمَرِهِ
سَنُونًا لَمْ يَدَّخِرْهَا عَنْهُمْ، رَأَى حَاجَتَهُمْ
فَاسْرَعَ مُضْحِيًا بِرَاحَتِهِ لِأَجْلِ رَاحَتِهِمْ.

أَصْبَحَ الْمَكَانَ الَّذِي وُلِدَ بِهِ هُوَ سَبَبُ
ضَيْقِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَبَبًا لِسَعَادَتِهِ حِينَ
كَانَتْ أُمُّهُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

فَكَّرَ وَقَرَّرَ أَنْ يُعَاوِدَ السَّفَرَ مِنْ جَدِيدٍ،
لَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَنْ تَكُونَ لِإِخْوَتِهِ كَمَا كَانَ

سفره السابق، بل ستكون لإعفاف نفسه
وأهل بيته.

شجعه على قراره ما رآه من جحود
إخوته على زوجه وابنته؛ إذ كانت
الكراهية هي أساس مُعاملتهم لهما.

كراهية بحتة لا سبب لها سوى الغيرة
من آمنة؛ لكونها ابنة الشيخ زكريا أبو
العمدة.

حين أراد عابدين الزواج اختاروا له
إحدى القريبات، لكنّه رفض اختيارهم
وأصرّ على اختياره، وتزوَّج من آمنة
رغمًا عنهم جميعًا.

قد عزم الأمر ولم أستطع التأثير عليه
فيما نوى فعله، أصابني التعب نتيجة
مُحاولاتي في التوضيح له عن أهميّة

وجوده بيننا، لكنّه لا يسمع لي، وسيفعل
ما أراد، ماذا أفعل أبي؟

قالتها آمنة بصوتٍ يقطعهُ البُكاء حينَ
ذهبت لبیت أبيها الشيخ زكريا.

الشيخ زكريا وقد ربّت على كتفها
بحنان: كفكفي دمعك يا ابنتي، فما عزمَ
عليه زوجك لهو عَيْنِ الصواب؛ يكفي ما
حدثَ له من ذلٍّ ومهانة، أما ترينَ حالكم
والفقر الذي أصبحتم عليه؟!

يومًا ما ستكبرُ زينب، وكما تعلمينَ يا
أمّها أنّ الفتيات حينَ يبلغنَ المَحِيضَ
يُطلبنَ للزواج.

آمنة: لا زالت في الرابعة من عُمرها
أبي.

الشيخ زكريا مُبتسمًا: ستكبر الصغيرة يا
أمها دون أن تشعري بها، لذا لا بُدَّ وأن
يكون أباهما قد ادّخرَ لها مبلغًا يُزوّجها
به.

آمنة: أريدُ لها مُستقبلًا أفضل من حالي،
لذا سأُعَلِّمها القراءة والكتابة، ثمّ أدفعها
للاضمام إلى الفصول التعليميّة، يكفي
أنني قد خرجتُ من المدرسة الابتدائيّة
قبل أن أكملَ تعليمي بها.

الشيخ زكريا: إذا لتُشجعي زوجك على
السعي في أرضِ الله الواسعة.

آمنة: حسنًا أبي، سأفعل بعونِ الله.

ذهبَ عابدين إلى إخوته وسألهم حقّه في
ميراثِ أبيه؛ لِيبتاعَ به عَقْدًا للعملِ

بإحدى الدول العربية الشقيقة، لكن عزّ الدين قد نهره وأخبره بأنّه لا ميراث له.

غضب عابدين وحوقل في وجهه، دفعه عزّ الدين فسقط أرضاً، نهض وعلل له سبب مُطالبته بحقه، لكنّه لم يراف به، بل تضاحك عليه بمعيّة باقي الإخوة!

لِمَ كُلّ هذا يا أبناء أبي وأُمّي؟

قالها عابدين والدمع يقطر من عينيه.

عزّ الدين بغضب: مَنْ أنتَ كي تسألنا؟

عابدين بصوتٍ منكسر: أخاك، أنا أخوك يا عزّ الدين، أخوكم الصغير الذي وصتكم عليه أمّكم قبل موتها، كما فعل أباك سابقاً.

عزّ الدين بعجرفة: جيّد أنّك تعلم مقامك
يا صغير.

عابدين بصوتٍ مُتهدج: لا فرق في
المقامات بين الإخوة، بين الإخوة يوجد
حُبّ وعطف، ورحمة ورأفة، وحلم
وصبر وستر.

عزّ الدين: لم يُعجبني حديثك يا عابدين،
وما دُمتَ قد نويت السفر فلا دخل لك.

عابدين مشدوهاً: ماذا تعني يا أبا يحيى؟
عزّ الدين: أعني أنّ المال الذي ستحصل
عليه نظير عملك، سترسله لي لأضعه
بمصرفات البيت الذي يآويك.

عابدين: لن أفعل يا عزّ الدين.

عزّ الدين: كما تُريد يا أبا زينب، لنرى
كَيْفَ ستُسافر؟

ومن أين ستأتي بالمال المطلوب؟

وإن حَدَثَ وسافرت، لا تُطيل الغياب؛ كي
لا تجد آمنة وزينب بالشارع.

وقبل أن ينطق عابدين بحرفٍ واحدٍ كان
عزّ الدين قد ترك المضافة ومعه باقي
الإخوة.

لم يُعرض عابدين عن قراره، بل تشبّثَ
به وقويت عزمته، حين عَلِمَ أَنَّهُ لا مفرَّ
لَهُ من الغُربة، لكنَّها غُربة هادفة هذه
المرّة؛ فلأجل أسرته الصغيرة سيغترب،
سيغترب لكنَّهُ أبداً لن يُضيع جهده، سيكدّ
ويُقاسي لأجل آمنة وزينب.

أخذت آمنة بنُصحِ أبيها، فوقفت مع زوجها كزوجةٍ أصيلة، أعطته مصاغها بطيبِ نفسٍ ليبيعهُ ومن ثَمَّ يستطيع السفر.

رفضَ في بادئ الأمر، لكنَّهُ وافقَ أمام إصرارها، ووعدَها بأنَّهُ سيعوّضها بما هو أفضل؛ إذ هو دينٌ مُعلّقٌ برقبته.

فرحَ عابدين بعد ما أمسكَ بتذكرة السفر، لكنَّ قلبه الطيّب قد نبضَ حُزنًا على فراقِ الأحبة وإن كانَ فراقًا مؤقتًا.

أسرعَ الزمانُ مرورًا حتّى جاء الميعاد، ميعاد الفراق.

أخذَ عابدين يُوصي آمنة على نفسها وابنتها، ثُمَّ أوصى الشيخَ زكريا عليهما،

وودعهم قبل أن يمتطي الحمار؛ ليُوصله
إلى المركز.

ظنَّ عابدين أنَّه لن يُعاني بعدَ اليوم..
ونسيَّ أنَّ بعضَ الظنِّ إثم!

الفصل الثاني

مَرَّتْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ عَلَى سَفَرِ عَابِدِينَ، لَمْ يُرْسَلْ خَالَهَا قَرَشًا وَاحِدًا، كَانَ الشَّيْخُ زَكْرِيَّا هُوَ الْمُتَكْفِلُ بِأَمْنَةِ وَابْنَتِهَا حَتَّى وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ قَبْلَ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ تَوَلَّتْ الْأُمُّ إِعَالََةَ ابْنَتِهَا وَحَفِيدَتِهَا مِنْ بَعْدِهِ.

لَمْ تَتْرِكْ ابْنَتَهَا لِلوَحْدَةِ؛ فَكَانَتْ تَزُورُهَا صَبَاحَ مَسَاءٍ، تَتَحَدَّثُ مَعَهَا وَتُضَاحِكُهَا، ثُمَّ تَذْهَبُ بَعْدَ أَنْ تَلْعَبَ مَعَ زَيْنَبَ.

أَخْبَرَتْهَا أَمْنَةُ ذَاتَ مَسَاءٍ أَنَّ جَمِيعَ مَنْ فِي الْبَيْتِ يُضَاقِقُونَهَا، حَتَّى أَنَّ عَزَّ الدِّينَ يُنَادِيهَا بِالصُّلَالِيَّةِ؛ إِذْ سَأَلَ عَنْهَا امْرَأَتَهُ فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنَّهَا تُصَلِّي وَلَا تَتْرِكُ فَرَضًا، كَيْ تَتَهَرَّبَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ!

ولأنَّ ليلي هي زوج كبير البيت، فهي
الامر الناهي في شؤون التدبير المنزلي،
وهي مَنْ توزع على نساء البيت
أعمالهنَّ.

أخذت آمنة تبكي على حالها، لكنَّ أمَّها
لم تتركها وحيدة، فأوصتها بالصبر،
واستأذنت عزَّ الدين في أخذ ابنتها لتُقيمَ
عندها بضعة أيام.

توقف الراوي عن السرد، سألهُ الصبية
السبب، ابتسم بعينين دامعتين ثُمَّ قال:
رُغم مرور الأعوام على هذه القصة إلاَّ
أنَّ أذى البشر لبني جنسهم لا زال
مُستمرًا!

كفكف دمعهُ وأخذ نفسًا عميقًا قبل
مُعاودته السرد مرَّة أُخرى.

ماذا تعني يا أبا يحيى؟

قالتها أمّ آمنة بغضبٍ ردّاً على رفض عزّ الدين إقامة آمنة معها.

عزّ الدين وقد اتكأ على عصي الخيزران الخاصة به: أعني أنّه لا يصحّ لها الخروج من البيت وزوجها غائب كما تعلمين، لا ندري إن كان حيّاً أو غير ذلك.

أمّ آمنة: وما الخطأ في ذلك؟

ليلى: الخطأ يكمن في حديث الناس؛ حين يتفوّهون بكلامٍ غير لائق قاصدين به أمّ زينب.

عزّ الدين: هذا ما وودتُ قوله.

أُمّ آمنة: لا أهتمّ بمن يقول ولا بما يقول،
ما داموا لن يعوّضونني عن ابنتي إن
حدّث لها مكروه.

عزّ الدين: ماذا تقصدين يا أرملة الشيخ
زكريا؟

أُمّ آمنة: أعني أنّ آمنة وزينب ستُقيمان
معي عِدّة أيّام؛ لغرض الترويح عن
النفس.

عزّ الدين وقد اتسعت حدقتاه غضبًا:
أنصت إليّ يا امرأة....

أُمّ آمنة مُقاطعة: أنصت أنت يا ابن أبي
المكارم، أنا راجية، أرملة الشيخ زكريا
أبو العُمدة _ رَحِمَهُ اللهُ، وابنة الحاج جاد
الكريم أبو العزّ، يعني لا يوجد أعلى من
كعبي في هذه البلدة، لكنّ الشيخ زكريا

قد علّمني أمور ديني، كما وصاني
بالتواضع.

لم تُعطهِ فُرصةً للردِّ على ما قالت،
فأخذت أمنة وزينب وذهبن إلى بيت
الشيخ زكريا رَحِمَهُ اللهُ.

أقامت أمنة وابنتها زينب مع أمّها ببيت
الشيخ زكريا، والذي يبعد عن بيت أبي
المكارم شارعين فقط.

تمرّ الأيام ويُطيل غياب عابدين، حتّى
ظنّ النَّاسُ أنّه قد مات؛ فأسرّع إخوته
بنصب سُرادق العزاء، أمّا النسوة فقد
اجتمعن على لطم الخدود وشقّ الجيوب،
والدُّعاء على النفس وعدم التسليم لأمر
الله إنّ هو قَدَر.

لم تذهب الحاجة راجية؛ لمخالفة فعل
النسوة لما جاء به الشرع الحنيف.

أما آمنة فقد اتشّحت بالسواد؛ حُزنًا على
فراقِ بعثتها.

أخذت الحاجة راجية آمنة وزينب،
وذهبن إلى بيت أبي المكارم، ليُقابلهنَّ
عزّ الدين بوجهٍ فاتر وبسمةٍ مُصطنعة.

قدّمت إليهم الحاجة راجية واجب العزاء
في عابدين، ثُمَّ وضّحت لهم سبب عودة
آمنة وابنتها، وهنا كانت المفاجأة!

أنكر عزّ الدين حقّ عابدين في ميراث
أبيه، وعليه فإنَّ آمنة ليس لها أيّة
حقوق لديهم بهذا الشأن.

ما تقوله ليس صحيحًا يا عزّ!

قالتها آمنة بصوتٍ يقطعهُ البُكاء.

عزّ الدين بكُلِّ ثقة: ماذا؟

ألا يوجد غير النساء لتُعَلِّمني الصّح من
الخطأ؟!!

آمنة: أراك تتنقص من النساء يا عزّ؟

وماذا بها إن علّمتك النساء ما دام
بالحقّ.

انتصبَ عزّ الدين واقفاً، وقبلَ أن يرفعَ
يدهُ عليها كانت أمّها قد أمسكت بيده.

راجية: الرجال الحقّ لا يتطاولون على
النساء، وأبناء الأصول إن غاب أخوهم
عَفّوا جماعتهُ عن سِوَال النَّاسِ، أمّا
أولاد الحلال فيحفظون الحقوق لأهلها،

ولا يغمض لهم جفن إلا بعد ردّ الحق
لصاحبه.

عزّ الدين: أنهيت حديثك يا أمّها؟

الحاجة راجية تنظر إليه بغضبٍ نسرٍ لا
يقوى أحد على أخذ ما في يده.

عزّ الدين: حسناً، لتعياً جيّداً لما أقول، لا
ورث لكم عندي؛ إذ أنّ عابدين ذاته لا
ميراث له، أمّا إنّ كنّا سنتحدّث بالأصول
فسأتركك لتربّي ابنتك بغُرفتِك وطعامِك
وطعامها عليّ.

قاطعتُه آمنة: لسنا بشحاذين يا عزّ،
لزوجي عندكم مال دفع ثمنه من عُمره
وشبابه.

علا صوت عزّ الدين: خسئت، قطع الله
لسانك، وقبل أن يكمل سبابه نهرتُه

راجية بقولها: بل قطع الله لسانك وذلّ
مقامك يا معدوم الضمير.

أتظنني أخشاك؟

كُنْ حذرًا لما تقول، أنا راجية، الحاجة
راجية بنت أبو العزّ وأرملة أبو العُمدة،
لا تتساهل ولا تجرؤ على رفع الكُلفة
بيننا، فمقامنا محفوظ حيثُ أقامنا الله.

آمنة وزينب ستُقيمان معي ببيتِ الشيخ
زكريا _ رضوان الله عليه، قد تركَ لهما
الراحل ما يكفيهما طيلة حياتهما.

نحنُ بيت عزّ وأصل، لا نترك بعضنا
للغير، بيت أبو العُمدة بيت الخير
والأصل.

رفع عزّ الدين يدهُ على الحاجة راجية
في محاولةٍ منه للطمها، إلا أنها أمسكت

بيده وعقبت: إن كررتها ثانية، أعدك
ستفقدّها وللأبد.

نظرَ عزّ إلى الأرض خجلاً وعجزاً،
أخذت الحاجة راجية ابنتها وحفيدتها،
وذهبن إلى بيتِ أبو العُمة.

الفصل الثالث

مرَّ عامٌّ على ذكرى وفاة عابدين، أقام
عزَّ الدين سُرادق العزاء مرَّةً أُخرى؛
لإحياءِ الذكرى، جلسَ المُقرئ على
كُرسیِّه المُزخرف، بدأ بتلاوة آي الذكر
الحكيم، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ
لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ
لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّا كَثِيرٌ
فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ
وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بُخْعَ نَفْسِكَ
عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ

أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً
لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا
لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) أَمْ
حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا
مِنَ الْآيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى
الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10).. صدق
الله العظيم.

وما أن أنهى الشيخ تلاوته حتى ضجَّ
المكان وارتجَّ من هول المفاجأة؛ إذ رأوا
الميت الذي يُحييرون ذكرى وفاته قد
أتاهم مُترجلاً يمشي على قدمين!

أصابهم الهلع جميعًا، حتى أن أحدهم قد
جزم أن روح عابدين غاضبة لذا قد أتت
لتتأثر له.

عَمَّ الاسْتِيَاءُ أَرْجَاءُ الْبَلَدَةِ بَعْدَ انْتِشَارِ
خَبَرِ حُضُورِ شَيْخِ عَابِدِينَ سُورَادِقِ
الْعِزَاءِ.

اقْتَرَبَ عَابِدِينَ مِنْ بَيْتِ أَبِيهِ، ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ
دُمْعًا مَمْزُوجًا بِالْحَسْرَةِ وَالْأَلَمِ، تَثَاوَلَتْ
خُطَوَاتُهُ حَتَّى ظَنَّ قَدَمَاهُ قَدْ شَلَّتَا.

جَرَّ قَدَمَيْهِ جَرًّا حَتَّى دَلَفَ الْبَيْتَ، رَأَتْهُ
لَيْلَى (أُمُّ يَحْيَى) فَصَرَخَتْ بِصَوْتٍ فَزِعٍ،
مَمَّا جَعَلَ نَسْوَةَ الْبَيْتِ يَجْتَمِعْنَ عَلَى
صَرَخِهَا.

لَا تَخَافِي يَا ابْنَةَ عَمِّ.

قَالَهَا عَابِدِينَ بِصَوْتٍ حَزِينٍ.

أَخَذَتْ لَيْلَى تُحْمَلِقُ بِهِ ثُمَّ سَأَلَتْهُ: مَنْ أَنْتَ
يَا هَذَا؟!

وكيف عرفت اسمي؟

نظرَ عابدين للأرض، ثُمَّ حَدَّثَهَا قَائِلًا: أنا
عابدين يا أُمَّ يحيى!

ليلى في مُحاولَةٍ منها للفهم: ماذا؟

ولكنَّ كَيْفَ؟!

تبسم عابدين من حديثها، لكنَّها لم ترى
بسمته؛ لغزارة شاربه ولحيته، وكذا
شعر رأسه.

ليلى: وَمَنْ الَّذِي فَعَلَ بِكَ هَذَا؟

عابدين: سأُخْبِرُكَ وَلَكِنْ لَيْسَ الْآنَ يَا أُمَّ
يحيى، وَأَخَذَ يَجُولُ بِبَصَرِهِ فِي أَرْكَانِ
الْبَيْتِ عَلَيْهِ يَجْذُهَا (أَمَنَةٌ).

أخبرته أم يحيى أنّ الحاجة راجية قد
أخذت آمنة وزينب؛ ليقيما معها بعد أن
ظنّ الجميع موته!

ليتني مت!

قالها عابدين بقلبه وذرفت لها عيناه.

ولّى ظهره لهنّ متوجّهاً إلى بيت الشيخ
زكريا أبو العمدة، لكنّ أم يحيى قد
أوقفته بقولها: إلى أين أنت ذاهب؟

لتغتسل أوّلاً فرائحتك تشي بأنك خارج
من قبر!

ردّ عليها بحسرة: لا أستطيع، سأفعل
بعد أن أطمئنّ على آمنة وزينب وعمي
الشيخ زكريا.

البقاء والدوام لله، قد مات عمك الشيخ
زكريا بعد سفرك بأربعة أشهر.

قالتها أم يحيى بصوتٍ حزين.

عابدين بصوتٍ واهنٍ حزين: مات أبي،
مات صاحبي، مات شيخي، مات بعض
قلبي، مات ضميري الحي!

حتى أنت قد تركتني يا شيخي!

أما يكفي أن نفسي قد تركتني هي
الأخرى!

عُدتُ لأرممَ روعي بحضرتك، فوجدتُ
روحك الطاهرة قد غادرت.

أخذَ عابدين يبكي بكاء اليتيم، لم تستطع
أم يحيى ولا غيرها من النسوة أن يهدأن
من روعه.

دلف عز الدين وإخوته البيت؛ بحثًا عن
عابدين بعد ما رأوه في سُرّادق العزاء.

رأوه وقد جلسَ واضعًا رأسه بينَ
فخذيهِ، يبكي على رحيل الشيخ زكريا.

أمرَ عزّ الدين النسوة بمُغادرة المضافة،
ثمَّ أغلقَ البابَ واقتربَ من عابدين قائلاً
له: مالك يا ابن أبي؟

ما الذي حَدَثَ لك؟

اصبر أخي، رَحِمَ اللهُ الشيخَ زكريا.

رفعَ عابدين رأسه ونظرَ لعزّ الدين
بعينين تذرفان: قد ذهبَ عُمري مع
رحيل عمّي الشيخَ زكريا، وبقيَ شبحي
تائها يَبْحَثُ عَنّي؛ علّه يَجِدُنِي!

رمقه عز الدين بنظرة حادة، تنم عن
عدم استيعابه لما أصبح عليه عابدين؛
فكلهم يعلم أن عابدين أمي لا يقرأ ولا
يكتب، فكيف يتحدث بلسان الفلاسفة؟

عز الدين: ماذا بك يا أخي؟

تنطق ويكأنك من أهل العلم!

تبسم عابدين بسخرية: لا تعتل همي يا
أبا يحيى، ثم انتصب واقفا ونظر
لإخوته، وأضاف:

وهل أعطيتم آمنة ميراثها في حين
توهمتم موتي؟

نظر بعضهم لبعض ولم ينبس أحدهم
ببنت شفة.

تركهم عابدين وذهب إلى بيت حمأه
الشيخ زكريا.

آمنة، آمنة.

نعم يا أمي.

راجية: هل تناولت زينب الطعام قبل أن
تنام؟

آمنة: أجل أمي.

راجية: أطهوت لها ما أرادت؟

آمنة: قد فعلت أمي، فذبحت لها دجاجة
وقمت بحشوها بالفريك، كما طلبت.

راجية: سلمت حبيبتي، وهل طعمت؟

آمنة: لست جائعة.

راجية: لم يا ابنتي؟

آمنة تتحسس أيسر صدرها: مقبوضٌ
قلبي منذُ الصباح أُمِّي.

راجية: خيرًا إن شاء الله.

آمنة: لا أدري لِمَ أشعرُ بعبدين؟!

راجية: رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ.

وقبلَ أنْ تنطقَ آمنة، سمعتَ طرقًا سريعًا
على الباب.

نهضتِ الحاجة راجية من مجلسها،
وأسرعت لغُرفتها فحملت مُسدسًا
لزوجها _ رَحِمَهُ اللهُ، وأمرت آمنة أنْ
تقفَ خلفها.

مَنْ الطارق؟

سَمِعَ عابدين صوت حماته، ذرفت عيناه
فرحًا، وعلا صوته يُنادي: آمنة، أنا
عابدين يا آمنة، افتحي لي يا أمّ زكريا.

نزلت كلماته على أذنيهما كوقع
الصاعقة، لكنّ آمنة قد شعرت بالحنين
لذكرياتها معه، بينما الحاجة راجية لا
تُصدّقه وتظنّه لصًا من اللصوص.

تقدّمت آمنة من الباب وقامت بفتحه على
مهّل، فاذا بشابّ متوسط القامة، أبيض
البشرة، أسود العينين وكحيلهما، طابع
الحُسن يُزيّن وجهه رُغم كثافة لحيته
وشاربه، وكذا شعر رأسه.

رأته آمنة فشهقت باسمه ثمّ سقطت على
الأرض مغشيًا عليها.

حملها عابدين ودلفَ بها إلى إحدى
غُرف الدار وسط ذهول الحاجة راجية.

وضعها على السرير وأخذَ يتأمل
ملامحها المنحوتة بعناية فائقة، امرأة لم
تُكمل العشرون بعد، مليحة، بيضاء
البشرة، بُنيّة العينين واسعتُهُما، كثيفة
أهدابهما، شعرها أشدُّ نعومة من
الحرير، أسودُّ من الفحم، طابع الحُسن
يُضفي على ملامحها نوعًا من الإثارة،
بالإضافة لشامةٍ صغيرة رقيقة سوداء
تعلو شفرتها اليسرى، ونظيرتها تتوسط
ذقنها الصغير.

قوامها كغزالٍ بريّ رشيق، لم يتعدّى
الثلاث وخمسون كيلو من الجرامات،

بينما طولها قد تعدّى المتر ونصف
ببعض السنتيمترات!

أخرجته الحاجة راجية من حالة
الرومانسيّة التي يعيشها، بقولها: مَنْ
أنت؟

نظرَ لها مُبتسمًا: أنا عابدين يا خالة
راجية، ثُمَّ قَبَّلَ يُمناها.

إِنْ كُنْتَ عابدين فَمَنْ الذي مات؟

رُبَّما اخْتَلَطَ عَلَيْكُم الأمر، لعدم مُراسلتي
لكم مُنذُ عامين.

قالها عابدين بصوتٍ حزين.

سألتها الحاجة راجية بحزم: ولماذا لم
تُرسلنا؟

عابدين وقد تساقطت عبراته: كُنْتُ أَظُنُّ
أَنَّ الدُّنْيَا سَتُعَانِقُنِي بَعْدَ الْعِنَاءِ الَّذِي رَأَيْتُهُ
بِهَا، لَكِنَّهَا قَدْ صَفَعَتْنِي صَفْعَةً أَفْقَدْتُ
نَفْسِي، فَأَصْبَحْتُ كَمَا تَرِينَ يَا خَالَةَ.

الحاجة راجية: كَيْفَ تَتَحَمَّلُ رَائِحَتَكَ
هَذِهِ؟

رائحتك تشي بخروجك من قبرٍ ما!

عابدين خَجَلًا: المَعْذَرَةُ يَا خَالَةَ، لَمْ
أَغْتَسِلْ مُنْذُ فِتْرَةٍ.

سَأُجْهِزُ لَكَ الْمَاءَ وَعِدَّةَ الْحَلَاقَةِ الْخَاصَّةِ
بِعَمِّكَ الشَّيْخِ زَكْرِيَّا؛ كَيْ تَغْتَسِلَ وَتُنَظِّفَ
بَدَنَكَ.

قَالَتْهَا الْحَاجَةُ رَاجِيَةٌ ثُمَّ تَرَكْتُهُ وَذَهَبَتْ.

أغلقَ خلفها الباب، وهذا من ضوء
السراج (لمبة جاز)، اقترب من آمنة
حتى تنسمَ بأنفاسها، فتحتَ عينيها على
مَهَلٍ لتراه يتغزل بها، ماسحًا بيدهِ على
شعرها.

عابدين!

قالتها بصوتٍ حانٍ، لم يتسطع عابدين
مُقاومته، فخلعَ عنه رداءه وقبلَ أن
يُكمل، قاطعته بقولها: ماذا ستفعل يا
عابدين؟

أأنتَ عابدين أم عَفریت؟

ضحك عابدين حتى بدت نواجذه، ثمَّ
أجابها بصوتٍ حانٍ تعرفه هي جيّدًا:
عابدين يا بنت القلب ونور العين، أشتاقُ

إليكِ جميلتي، لكم تمنيتُ هذه اللحظات
مُذْ سَفَرِي.

حاولَ عابدين أنْ يُقْبِلَهَا، لَكِنَّهَا نَفَرَتْ مِنْهُ
وَأَسْرَعَتْ بِالنَّهْوِضِ.

نَظَرَ إِلَيْهَا عَابِدِينَ بَعِينِينَ دَامِعَتَيْنِ: أَلْهَذَا
الْحَدِّ قَدْ كَرِهْتَ عَابِدِينَ يَا آمَنَةَ؟

آمَنَةُ بَعْدَ أَنْ أَمْسَكَتْ بِمَقْبِضِ الْبَابِ: لَمْ
وَلَنْ يَحْدُثْ حَبِيبُ آمَنَةَ.

عَابِدِينَ: إِذَا مَاذَا؟

آمَنَةُ: عَاهَدْتُكَ نَظِيفًا طَيِّبًا يَا حَبِيبِي، لَمْ
أَعْتَدِ رُؤْيَاكَ بِهَذَا الشَّكْلِ، الْمَعْذَرَةُ
حَبِيبِي، لَتَغْتَسِلَ أَوَّلًا وَتُنَظِّفَ نَفْسَكَ؛
لَأَتَّيُّ أَسْتَأْذِنُكَ إِلَيْكَ يَا رَجُلًا.

حَسَنًا، قَدْ فَهَمْتُ مُرَادَكَ يَا صَغِيرَتِي.

قالها عابدين وانصرف إلى دورة المياه؛
ليغتسل ويُنظف جسده، بينما آمنة قد
أسرعت لخزينة الملابس، فأخرجت منها
صندوقاً يحوي بداخله أدوات الزينة
الخاصة بها، لتتجمل لزوجها كما لو
كانت عروساً ليلة زفافها!

ما العمل يا أبا يحيى؟

قالتها ليلي لعز الدين.

عز الدين: لا أدري يا أم يحيى!

ليلي: كيف؟

ثم أضافت: لا خير له في مالنا، وإن كان
قد وضع ماله بهذا البيت، فذلك قبل
موت أباكم، أما وقد مات أبوكم فلا مال
له عندهم، وبالتأكيد لن نقوم بتقسيم
البيت الذي يأوينا.

نَظَرَ لَهَا عَزَّ الدِّينَ بِعُجْبٍ، ثُمَّ أَضَافَ:
سُبْحَانَ مَنْ سِوَاكَ!

هَكَذَا يَكُونُ الْقَوْلُ الْأَصَحُّ.

صَغِيرَتِي الْحَبِيبَةَ، غَزَا لَتِي الْجَمِيلَةَ،
أَشْتَاقُكَ جَمِيتَلِي.

قَالَهَا عَابِدِينَ بِصَوْتٍ هَادئٍ بَعْدَ طَرَقِ
خَفِيفٍ عَلَى بَابِ غُرْفَةِ آمَنَةَ.

فَتَحَتْ لَهُ آمَنَةُ عَلَى مَهْلٍ؛ لِيَرَاهَا فِي
أَبْهَى حُلَّةٍ بَعْدَ أَنْ تَجَمَّلَتْ فَأَكْحَلَتْ
الْعَيُونَ، وَأَكْرَمَتِ الشَّعْرَ، وَطَيَّبَتِ الْجَسَدَ.

دَلَفَ بِلَهْفَةٍ وَأَغْلَقَ دُونَهُ الْبَابَ.

جَدَّتِي أَنَا عَطَشَى، أُرِيدُ مَاءً.

قَالَتْهَا زَيْنَبُ وَهِيَ مُغْمِضَةُ الْعَيْنَيْنِ.

نهضت جدّتها راجية فجاءتها بالماء؛
كي تروي ظمأها.

سلمت جدّة، تُصبحين على خير.

وأنتِ كذلكِ يا ابنة قلبي، ثُمَّ قَبَلْتَ جبينها
وخلدت هي الأخرى إلى النوم.

ضبابٌ يُغشي المكان، تشابك الأشجار
يُوحى بالفرع، بوجود ظُلمة الليل.

جماجمٌ منثورة على جانبي الطريق، أيُّ
طريقٍ هذا الذي تُزيّنه الجماجم؟!

يبدو وكأنّه طريق اللاعودة!

صوتٌ مُرعب يُنادي: عابدين.

كُلّما نادى الصوت ارتجّ المكان بما
عليه.

كَادَتْ أَنْفَاسُ عَابِدِينَ تَنْقُطُ مِنْ فَرْطِ
نَشَاطِ قَلْبِهِ، قَفْصُهُ الصَّادِرِي يعلو ويهبط،
يسيرُ على أطرافِ أصابعه؛ كي لا تلمحه
الجماجم!

يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهَا مُجَرَّدُ رُفَاتٍ فَاقِدِ
الْقُدْرَةِ وَالْحَرَكَةِ، لَكِنَّ خَوْفَهُ تَغْلِبَ عَلَى
عِلْمِهِ فَظَنَّهَا تَقْوَى عَلَى الْحَرَكَةِ، بَلْ
وَبِمَكَانِهَا أَنْ تَفْتِكَ بِهِ.

تَائِهًا لَا يَدْرِي مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى هُنَا؟
وَكأنَّ ذَاكِرَتَهُ قَدْ مُحِيتْ لِلتَّوَّ، هُنَاكَ طُرُقٌ
يَدْلِفُهَا الشَّخْصَ دُونَ خِيَارٍ، وَعَلَيْهِ أَنْ
يُكْمِلَهَا بِكَامِلِ إِرَادَتِهِ.

مَا هَذَا الَّذِي أَسْمَعُهُ؟

هَمَسَ بِهَا عَابِدِينَ لِنَفْسِهِ.

صوت حركةٍ بطيئةٍ قد تسببَ في جفافِ
دمه!

نظرَ حوله فلم يجد شيئاً قد تغَيَّرَ،
فالجماجم كما هي، وتشابك الأشجار كما
هو، والظلام يقطعُه بصيص من ضوء
القمر.

أقعَّ عقله بالألا يلتفت وأكملَ سيره،
لحظاتٍ وتكرَّرَ ما سمعه قبلَ قليلٍ.. وقفَ
فتوقفَ الصوت، تمنَّى لو ابتعلته الأرض
في تلك اللحظة، قررَ أن يُواجهَ مخاوفه
فاستدارَ رويدًا رويدًا فاذا به وقد اتسعت
حدقاته، أخذَ ينظرُ بفمٍ فاغرٍ لتلك اليد
الخارجة من باطن الأرض!!

لم يتمالك خوفه فصرخُ بكلِّ ما أُوتِيَ من
قوَّة؛ لتكونَ صرخاته هي مفتاح السرِّ

في عودة الرُفات للحياة.. بينما هو من
أصبح مكانهم!

عابدين، عابدين.

ماذا بك يا حبيبي؟

قالت لها آمنة وهي تُحاول ايقاظه، ثُمَّ
أضافت: لماذا تتصبّب عرقًا هكذا؟!

تفضّل بعض الماء.

احتسى عابدين بعض حسوات من كوب
الماء، ثُمَّ أسندَ رأسه على صدرِ آمنة،
وأخذَ يبكي.

ما الذي قد فعلته بنفسك يا ابن حزينة؟!

قالها عابدين مُوجهًا السؤال لنفسه.

أخذت آمنة تمسحُ على رأسه بحنانٍ
بالغ، حتّى كفّ دمه وأعتدلَ جالسًا

على الفراش: صغیرتی، لا أريدُ العودة
إلى تلكَ البلدِ مرّةً أخرى.

ومن ذكركَ بها؟

قالتْها آمنةٌ بدهشةٍ.

أكملَ عابدين حديثه: أَشْتَاقُكَ وزينب
جميلتي، لا تتركيني لنفسي والشيطان!

وما دخل الشيطان بالأمرِ عابدين؟

أشعرُ وكأنّكَ قد تغيّرتَ بعض الشيء.

عابدين: لا شيءٌ بإمكانه أن يُغيّرني
سوى قُربِكَ يا صغیرتي، والآن أين
إفطار العرائس يا عروس قلبي؟

تبسمتُ آمنةٌ بخجلٍ ثمّ ذهبت لتأتيه
بطلبه.

أمّي، أصحيحُ ما قالتْهُ جدّتي؟

قالتها زينب بلهفة.

آمنة أثناء إعداد الإفطار: صباح الخير
عزيزتي.

زينب بمرح: صباح الخير أميرتي.

آمنة بعدما قبلتها: صباحك جميل يا زينة
الفتيات.

أجل صحيح، وهو جالسٌ بالغُرْفَةِ مُنْتَظِرًا
الإفطار، دعيني أخبره بشوقك إليه قبل
أن تدلفي لتسلمي عليه.

كما اتفقتا، سنضغط على عابدين؛
ليتنازل لنا عن حقه بالبيت الكبير، لنأمن
على أنفسنا منه.

نحنُ عُصبة وهو بمفرده، وسنكون أشدَّ
بمعية أزواج أخواتكم.

قالها عزّ الدين مُحدّثًا بها إخوته.

تمتّ الجميع بالموافقة.

طرقت آمنة الباب ثُمَّ فتحت على مهلٍ
وهمست لعابدين: زينب تُريدُ أن تُسلمَ
عليك.

فما كان منه إلا أن ارتدى جلبابه
الفضفاض في الحال.

كان الحقّ معي حين أخذت ملابسك من
هناك حبيبي.

قالتها آمنة بدلال.

تبسم لها عابدين وأضاف: سلمت لي يا
ابنة قلبي.

خَرَجَ عَابِدِينَ إِلَى صَالَةِ الْبَيْتِ؛ لِيُفَاجَأَ
بَزَيْنَبٍ وَقَدْ كَبَّرَ جَسَدَهَا وَتَغَيَّرَتْ
مَلَامَحُهَا، تَبَسَّمَتْ لَهُ فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ.

قَبَّلَ يَدَهَا وَجَبِينَهَا، ثُمَّ احْتَضَنَهَا وَهُوَ
يَبْكِي.

رَبَّتْ أَمْنَةً عَلَى كَتْفِهِ بِحَنَانٍ ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْ
زَيْنَبٍ أَنْ تُنَادِيَ جَدَّتَهَا مِنْ سَطْحِ الْبَيْتِ؛
كَيْ تَتَنَاوَلَ مَعَهُمُ الْإِفْطَارَ.

عَابِدِينَ، مَاذَا هُنَاكَ؟

أَشْعُرُ وَكَأَنَّ السَّفَرَ قَدْ غَيَّرَكَ!

حَتَّى أَنَّكَ قَدْ نَسَيْتَ الدُّعَاءَ الَّذِي عَلَّمَنَا
إِيَّاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وَالْخَاصَّ بِاتِّيَانِ الزَّوْجِ زَوْجَتِهِ، رَغِمَ أَنَّكَ
لَمْ تَنْسَاهُ قَطَّ طِيلَةَ الْأَعْوَامِ السَّابِقَةِ.

نَظَرَ عَابِدِينَ إِلَيْهَا بَعِينِينَ دَامِعَتَيْنِ، ثُمَّ
أَضَافَ: سَامِحِيْنِي صَغِيرَتِي، أَمَانُ قَلْبِي
وَأَمْنَتُهُ.

قَدْ رَأَيْتُ بَغْرَبْتِي مَا لَا يَسِرُّ الْخَاطِرُ.

خَيْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَالَتْهَا أَمْنَةُ بِلَهْفَةٍ.

عَابِدِينَ: لَا تَعْتَلِيْ هَمِّيْ أَمْنَةُ.

أَمْنَةُ: وَإِنْ فَعَلْتُ، فَمَنْ الَّذِي يَحْمِلُ عَنْكَ
بَعْضَ هَمِّكَ حَبِيبِيْ؟

قَبَّلَ عَابِدِينَ رَأْسَهَا، وَجَلَسَ مُنْتَظِرًا قُدُومَ
زَيْنَبَ وَجَدَّتْهَا؛ لِيَتَأَوَّلُوا الطَّعَامَ سَوِيًّا.

الفصل الرابع

قد كَبُرَتْ الصغيرة يا أُمّها قبلَ أوانها!

قالها عابدين لآمنة أثناء جلستهما
بسطح البيت.

آمنة: ألا برّكت حبيبي، بارك الله في
جدّتها راجية؛ فهي من ترعاها، لم
تحرمها من شيء، تفعل لها ما تريد،
وتُطعمها من خيرات الله، ولا تبخل
عليها بشيء.

ضحك عابدين حتّى بدت نواجذه ثمّ
أضاف:

لا حرمانها أبداً، نعم الخليفة هي لعمري
الشيخ زكريا!

آمنة: رحمت الله عليك يا أبي.

عابدين: كم عُمرها الآن يا أمّها؟

آمنة مُندهشة: أنسيت عُمر ابنتُك!

عابدين مُبتسمًا: المعذرة يا صغيرتي.

آمنة مُبتسمة: العُذرُ لك يا أباهَا، قد

أتمت الستة أعوام مُنذُ شهرين.

عابدين مُندهشًا: فقط ستة أعوام!

ظننتُها أكبرَ من ذلك بكثير، رَضِيَ اللهُ

عن الخالة راجية، وَرَحِمَ عَمِّي الشيخ

زكريا.

آمنة مُتأثرة: اللهم آمين يا ربّ العالمين.

زينب، زينب.

نعم يا جدّة.

راجية: هيّا بنا.

زينب: إلى أين؟

راجية مُبتسمة: إلى مكانٍ سيُفرح قلبك.

زينب بسعادة: هيا بنا يا جدّة.

أخذتها الجدّة راجية وذهبتا إلى بيت العمّة ماريّا؛ لتُفصل لها ثياباً جديدة تستر جسدها البضّ.

وصلتا إلى البيت، وما أن رأتهما العمّة ماريّا حتّى هشّت لهما وبشّت، صافحت الجدّة وعانقتها وكذا زينب، ثمّ أدخلتهما البيت.

تفضلا يا خالة راجية من هنا.

قالتها ماريّا مُشيّرةً إلى غرفة الضيافة.

ردّت عليها الخالة راجية بصوتٍ فرح: لم نأت للضيافة يا أمّ ماجد، جنّاك في

طلبٍ بخصوص عملِك، فلنَجس بجوار
ماكينة الحياكة بالصالة.

سُرتَ ماريّا من قولِ راجية، ثُمَّ جلسنَ
بالصالة وبجوار ماكينة الحياكة.

كيفَ حالكِ يا أُمّ ماجد؟

قالتَها راجية بعدَ أَنْ خلعتُ الحُبْرة
ووضعتها بجانبها.

نحمدُ الله يا خالة راجية.

قالتَها ماريّا بحُزنٍ وكأنَّ بقلبها غصّة
تسري بحلقها!

راجية: مالكِ يا ابنة المُقدس؟

نظرتَ ماريّا إليها، ثُمَّ أسرعَتْ وارتمتْ
بحضنها وأخذت تبكي.

أخذت راجية تربت على كتفها بحنانٍ ثُمَّ
تابعت: أويحمل قلبك الصغير كُلَّ هذا
الحُزن يا بُنيّتي؟

هل تسبّب رياض في حُزنك؟
نظرت لها ماريّا نظراتٍ تُؤكد صّحة
شكّها.

غضبت راجية وأضافت: وأينَ هو الآن؟
ماريّا بصوتٍ يقطعهُ البُكاء: ذهبَ إلى
الحقل يا خالة.

راجية بعدَ أن مسحت دمعها: تعلمينَ أنّك
وآمنة بقلبي سواء، تعلمينَ أم لا؟
ماريّا: أعلمُ أمّي.

راجية: كانتُ أمّك (تريز) بمثابة أخت
لي، فأنا وحيدة أبواي كما تعلمين، لأجلِ

هذا كانت هي قريبة مني، وأنت كذلك
بالنسبة لآمنة ابنتي.

ماريا بعدما قبلت جبينها: أعلم ذلك يا
خالة.

راجية: حسناً، أتساءل: ماريا ابنة
المقدس مكرم لم تجذ رجلاً غير رياض
أبو لبيب لتتزوج به؟

ماريا: أراه النصيب خالة.

راجية مُبتسمة: النصيب الذي اخترته
أنت بقلبك ماريا!

ماريا بخجل: أنرت الدار يا زينب، كبرت
الزينة حماها الله.

راجية: لأجل هذا جنناك.

ماريا: أنا في خدمتكم خالة.

راجية: سلمت وغنمت بُنيّتي، أريدك أن
تُفصلي لها ثوبين أو ثلاثة بذوقك
الجميل، هذا هو القماش لتأخذه.

ماريا بعدما قبّلت زينب وأخذت من
راجية القماش: حسناً يا خالة، هل لك
مواصفات أم أفصل بالمواصفات
القديمة؟

راجية: نعم، لديّ بعض المواصفات،
أريد أن يكون الثوب ساتر، واسع،
فضفاص؛ كي تأخذ راحتها به وليس
جسدها البضّ، حفّظها الله.

ماريا: آمين، حسناً خالتي ليكن ما
أردت، ثمّ استأذنتها وذهبت لتأتيهما
بواجب الضيافة.

آمنة أمعك مفتاح الغرفة؟

قالها عابدين وهو يرتدي جلبابه.

آمنة: أجل حبيبي، أنهض لآتيك به؟

عابدين مُبتسمًا: ليس الآن، ارتاحي قليلًا

يا صغيرتي، وأنا سأذهب إلى إخوتي.

آمنة: حماك الله حبيبي.

لِمَ كُلّ هذا التعب يا أمّ ماجد؟

قالتها راجية بعدما وضعت ماريًا واجب

الضيافة أمامها.

ماريّا: لا يوجد تعب ولا غيره يا خالة،

واجب الضيافة هذا أقلّ من مقامك

العالي، بالهناء والشفاء.

مدّت راجية يدها فتناولت بعض الفايش

(نوع من المخبوزات التي يتميّز بها أهل

الصعيد)، وأعطته لزينب ومعه كوب

شاي خفيف، أمّا هي فتناولت بعض
الكعك مع كوب شاي حِبر (شاي ثقيل
جداً أُعيدَ غليانه أكثر من مرّة).

ماريا بعدما أخذت مقاسات زينب،
وجلست على ماكينة الحياكة: وكيف
حال آمنة يا خالة؟

راجية: بخير يا بُنيتي.

ماريا: أصحيح ما قد سمعته يا خالة،
بخصوص عودة زوجها للحياة مرّة
أخرى؟!

وضعت راجية كوب الشاي جانباً، ثُمَّ
تَنَهَّدت وقالت: لا أدري ماذا أقول يا
ابنتي؟!

ماريا بدهشة: خيراً يا خالة، ماذا حدث؟

راجية بعدما نظرت لزئنب: لئس الآن يا
ابنتي، لئس الآن.

ماريا: كما تُريدين يا خالة.

أهلاً، أهلاً، أهلاً.

قالها عزّ الدين حين رأى عابدين.

هذا هو أخي، لا ذاك الميّت الهارب من
القبر!

تبسم له عابدين وأضاف: الحمد لله،
كيف حالكم يا أبا يحيى؟

عزّ الدين بعدَ عناق: نحمدُ الله يا أبا
زئنب، ماذا حدّث لك يوم عودتك؟

عابدين بعدما جلس: ظُلمتُ يا ابن أمّ،
ظُلمتُ ظُلمًا فاحشًا، وحين رآني أحد
الرجال على حالتي تلك، أشفقَ عليّ

وأتى لي بأوراقى من من ظلمني، ثم قام
بالحجز البحري لي؛ كي أستطيع العودة
إلى هنا.

عزّ الدين: جزاه الله خيرًا.

عابدين: يا ربّ، أبا يحيى جنّك
لأستاذك في العودة للإقامة بعُرفتِي.

عزّ الدين: عُرفتُك محفوظة كما هي يا
أبا زينب.

عابدين: حسنًا، حسنًا.

السّلامُ عليكم يا أهل البيت.

قالتها راجية بعدما فتحت الباب ودلفت.

زينب، اذهبي إلى عُرفة أمّك فأخبريني
إن كانت يقظة؟

زينب: حسنًا يا جدّة.

أسرعت زينب بالوقوف أمام باب غرفة
آمنة، طرقت الباب وأخذت تُنادي عليها
دون أن تدخل.

أمي، أمي، جدتي بحاجة إليك إن كنت
يقظة.

أتاها صوت آمنة وهي تُغالب النوم:
حسنًا يا زينب، اذهبي وسألحك بك.

لحظات وكانت آمنة تجلس مع راجية
بفناء الدار.

ما بك يا ابنتي؟

آمنة: بخير يا أمي.

راجية بعدما هزت رأسها: كيف حاله
معك؟

آمنة بخجل: كالعسل أمي.

راجية: حسنًا، خُذي حذرَكَ فعابدين به
شيء لا يعلمه إلا الله.

آمنة بخوف: مثلُ ماذا أمِّي؟

راجية: الله أعلم، الأيام كشاف الحقائق.

آمنة: أين ذهبتما يا أمِّي؟

راجية: ماريا تُرسلُ إليك السلامات.

آمنة بدهشة: أذهبتِ لماريا دون أن
تأخذيني معكِ أمِّي؟

راجية: رأيْتُكِ مشغولة بزواجكِ، فذهبتُ
وزينب لقضاءِ أمرٍ ما.

آمنة: أمرٌ ماذا أمِّي؟

راجية: أردتُ أن أفصّلَ لزينب ثوبين أو
ثلاثة؛ كي تستر بهم جسدها البضّ
ومحاسنها التي ظهرت قبل أوانها.

آمنة بعدما قَبِلَتْ جبينها: ستركِ الله دُنيا
وأخرة أُمِّي.

دلف عابدين، ألقى السّلام ثُمَّ جَلَسَ
وقال: لا أدري كيف أشكركِ يا خالة؟!!

مهما فعلت لن أفيكِ حقّكِ، ليجعلنا الله
سبباً لدخولكِ الجنّة.

راجية: على ماذا تشكرني؟

قد حَفِظْتُ لحمي وعِرْضي من بهدلة بيت
أبي المكارم.

تبسم عابدين وأضاف: لن يحدث وأنا
حيٌّ أرزق.

راجية: أطالَ الله عُمرَكَ يا ولدي.

عابدين بعدما قَبِلَ يُمناها: أَسْتَأذِنُكَ خَالَةَ
فِي أَنْ آخِذَ أَمْنَةً وَزَيْنَبَ لِنُقِيمَ بِغُرْفَتِنَا
بَبَيْتِ أَبِي.

رَاجِيَةٌ: وَبَعْدَهَا تُسَافِرُ وَتَتْرَكُهَا لِإِخْوَتِكَ؛
لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهَا عَيْشَهَا، لَنْ تَفْعَلَ مَا دَامَ
بَيْتُ الشَّيْخِ زَكْرِيَّا لَا زَالَ مَفْتُوحًا بِالْخَيْرِ
وَالْخَيْرِ.

وَمَا أَنْ سَمِعَ عَابِدِينَ اسْمَ الشَّيْخِ زَكْرِيَّا
حَتَّى سَأَلَتْ عِبْرَاتِهِ.

أَمْنَةٌ: أُمِّي لَا تُكْثِرِي عَلَيْهِ، لَنْ يَتْرَكُنَا
ثَانِيَةً.

عَابِدِينَ بَعْدَمَا كَفَفَ دَمْعُهُ: لَا تَقْلَقِي
خَالَةَ، سَتَكُونُ الْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ.
رَاجِيَةٌ: حَسَنًا.

آمنة: سأذهب لأجهز أشيائي.

دلفت غرفتها ولحقها عابدين.

ما أجمل الغزال البري!

قالها عابدين.

استدارت آمنة وتوقفت عن تغيير
ملابسها.

ماذا هناك يا رجل؟

قالتها بدلال.

عابدين بعدما اقترب منها: كُلَّ خَيْرٍ
صغيرتي.

آمنة: عابدين ليس الآن؛ فأُمِّي تجلس
خارج الغرفة، وزينب ستأتي من سطح
البيت.

عابدين بصوتٍ رخيمٍ لا تقوى آمنة على
مُقاومته: ألا تُريدِينَ أَنْ يكونَ لزينب أخ؟

آمنة بصوتٍ حانٍ: بالطبع أُريد، ولكن
بعدَ أَنْ تُرزقَ بعملٍ يكفينا ذلَّ السؤال.

عابدين: لكنَّني لا أستطيع، سأفعل ما
بوسعي ليكونَ لها أخاً يؤنس وحدتها،
ويُشاركها الفرح والطرح.

أسرعَ إلى الباب فأغلقه بالقفل، ثُمَّ هدأَ
من ضوئٍ لمبة الجار، حتَّى باتت
إضاءتها خافتة.

مضتْ الأيام وعادت آمنة لحياتها
القديمة قبلَ أَنْ يُسافر عابدين، لكنَّها
لاحظتْ أَنَّ عابدين لم يَكُن كما عاهدته؛
إذ أصبحَ مُتقلِّب المزاج، لا يسعى لتغيير

وضعهم المادي الصعب، فقط يُريدُ طعامًا
ومُضاجعة، لا أكثر!

عابدين، وماذا بعد؟

قالتها آمنة وهي تجلس بجواره على
الأريكة.

عابدين وقد وضعَ يدهُ على بطنها؛
يتحسّس نبض جنينها: ماذا حدث يا
جميلتي؟

آمنة بعدما أزاحت يدهُ عن بطنها: مرّت
الأشهر وأوشكتُ على الوضع، ولا شيء
يُعيّنني على ذلك في هذا القحط.

عابدين: لا تحملي همًّا يا صغيرتي،
فالطفل يُولد ويُولد معه رزقه.

آمنة: إِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَمَا فَادَتْكَ بِالنَّسَبَةِ
لَهُ؟

عابدين: ماذا تقصدين آمنة؟

آمنة: مَا أَقْصَدُهُ أَنْ تَبْحَثَ لَكَ عَنْ عَمَلٍ
نَقَاتَ مِنْهُ، يَكْفِي مَا فَعَلْنَاهُ بِأُمِّي حِينَ
تَسْبِيْنَا فِي بَيْعِ بَعْضِ أَرْضِهَا؛ كَيْ نَبْقَى
عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ!

عابدين بغضب: أَتُعَايِرِينَنِي؟

آمنة: أَتَرَى الْحَقِيقَةَ مُعَايِرَةً؟!

عابدين: ماذا تُريدين؟

آمنة: أُرِيدُكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقِكَ، فَإِنْ لَمْ
يَكُنْ هُنَا فَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، لَتَسْعَى فِي
مَكَانٍ آخَرَ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

عابدين: حسنًا، سأفعل، ولكن بعد
وضعتك.

جاء الربيع، نسّمت الهواء تشفي
العيال، تتوّعت المحاصيل الزراعيّة،
فرسّمت لوحة فنيّة بأرض الحقول.

الكلّ يتجهّز للاحتفال بالنسيم، فهذه تقوم
بعمل الفطائر، وتلك تسلق البيض،
وأخرى تُجهّز الجبن القديم والعسل
الأسود.

دوى صراخ آمنة أرجاء بيت أبي
المكارم، هرع النسوة وتركّن ما كنّا
يفعلنه.

أخذ عابدين يبكي على بكائها.

دلفت ليلي وباقي النسوة، فرأت آمنة
تستغيث من شدّة ألمها.

طلبت من عابدين أن يذهب إلى الحاجة
راجية؛ لتحضر ولادة ابنتها.

إذهب إلى الحاجة راجية فأبلغها بأن
آمنة ستلد الآن.

سمع كلامها وأسرع إلى بيت راجية.

طرق الباب، فتحت له زينب، سألتها عن
جدتها، أخبرته أنها تطعم الطيور بسطح
البيت.

صعد السلم الطيني بسرعة، رآها
فأخبرها بحالة آمنة.

ضربت على صدرها بيديها، ثم أمرت
زينب أن تأتيها بالسكين الحاد.

زينب بعدما جاءتها بالسكين: تفضلي يا
جدة.

أخذت منها راجية السكين، وعلى الفور
قامت بذبح فرختين وبطتين، ثم وضعتهم
بحقيبة سوداء، ومعهم الكثير من السمن
البلدي، وبحقيبة أخرى وضعت الفايش
الذي أعدته مسبقاً لهذا الغرض.

وصلت راجية لبيت أبي المكارم، وضعت
ما جاءت به جانباً وصعدت إلى غرفة
ابنتها.

وجدت النسوة يملأن الغرفة، أمرتهن
بالخروج، بقيت هي مع ابنتها بصُحبة
القابلة نجيبة (أمّ لبيب).

سأمت أمّي، استوصي بزینب خيراً.

قالت لها آمنة بصوتٍ ضعيف.

أمسكت راجية بيدها وقالت: ستعيشين يا
ابنتي، لتكوني أكثر صبراً على ألمك.

القابلة بصوتٍ يشوبه القلق: حالتها
خطيرة يا عمّة راجية، مُمتلئ رَحْمها
بتوأمين لا بجنينٍ واحد!

راجية: اللهمّ بارك، كوني قويّة يا آمنة،
وأنتِ يا أمّ لبيب مجّدي ربّك، وسّليه
التيسير.

أمّ لبيب: يا مُسهل يا ربّ، اللهمّ يسّر لها
وضعها ولا تفجعنا فيها.

راجية: آمنة، اقراي ما تيسر من القرآن
الكريم، وصلّ على السراج المُنير، اللهمّ
صلّ وسلّم وزد وبارك عليك يا حبيب الله
مُحمّد.

أخذت آمنة بنصيحة أمّها فبسلّمت
وشرعت في قراءة الفاتحة، وما أنْ

انتهت منها حتّى علا صوت أمّ لبيب: يا
مسهل يا ربّ، هانت يا آمنة.

أخذت تطلق حتّى جاء وليدها الأوّل إلى
الدنيا، وبعده بعدّة دقائق جاء الآخر.

رأى عابدين طيفاً أثناء جلوسه بجوار
قبر أمّه، فركّ عينيه فلم يجد شيئاً، أكمل
حديثه الذي بدأه حين جاء.

ظلمتُ أمّي وما أصعب الظلم!

قالوا لي أنّ الله يحبّني ولإثبات حبّي له
سُبْحَانَهُ وتعالى، لا بُدَّ وأنّ اتبع
طريقهم؛ إذ هو الخلاص من كلّ همٍّ
وغمٍّ، بل هو الرفعة والراحة الأبدية.

فرحتُ كثيراً جدّاً، فمثلي أمّي لا يفقه
شيئاً، أنّى لي بحبّ الله؟

سهلوا لي الأمر واختصروا عليَّ
الطريق، أخبرتهم بحياتي وما احتوت
عليه مذ وُلدت وإلى أن قابلتهم.

فرحوا بي أيّما فرح! فأنا المنتظر
خاصّتهم؛ بل أنا من يبحثون عنه منذ
مئات السنين!

رأيتهم يتساهلون في صلاتهم وكذا أمور
دينهم، أخبرتهم بالصحيح فعليه كما
علّمني شيخي زكريا _ رَحِمَهُ اللهُ، لكنّهم
وبحيلةٍ مأكرةٍ أقنعوني بأنّ الشيخ زكريا
هو الخطأ، وأنّ ما علّمنيهِ ما هو إلّا
محض ضلال!

قاومتُ أفكارهم لكنّ شيطانِي قد استسلمَ
لهم؛ بحُجة أنّهم أعلم منّي، فأنا الأمّيّ
الجاهل.

آه يا أمي على ما حدث لي!
قد سُرقت مني دون علمي.
وقبل أن يكمل جاءه يحيى مُبشراً.
مبروك يا عمي، ألف مبروك.
بارك الله لك فيما رزقك.
كفّف عابدين دمعته وقال: أوضعت
آمنة؟
يحيى بحماس: أجل عمي.
عابدين: الحمد لله على عطائه الجزيل.
يحيى: قد وضعتُ توأمًا يا عمي، جميلان
كالبدر ليلة تمامه!
عابدين بدهشة: إناث أم.....
قاطعه يحيى: ذكرين يا عمي.

عابدين وقد اتسعت عيناها: ماذا
؟!!!!!!!!!!!!!!

هذه إشارة قد أُخبرتُ بها من قبل.

يحيى: خيراً يا عمّي؟

عابدين: لا تُشغل بالك يا ولدي، هيا بنا
لنرى أبناء عمك.

الفصل الخامس

بدلت آمنة ثيابها بمُعَاوَنَةِ أُمِّهَا، ثُمَّ
اسْتَلَقَتْ عَلَى سَرِيرِهَا، بَيْنَمَا رَاجِيَةٌ قَدْ
نَظَفَتِ الْفَرَاخَ وَالْبَطَّ، وَوَضَعَتْهُمْ فِي إِنَاءٍ
بِهِ مَاءٌ عَلَى الْمَوْقِدِ الْحَطْبِيِّ (الكَانُونِ).

وَقَامَتْ بِعَمَلِ أَكْلَةٍ سَرِيعَةٍ لَتَتَنَاوَلَهَا آمنة؛
كَيْ تَزِيدَ مِنْ طَاقَتِهَا وَتَعَوِّضَهَا عَمَّا
أَحْدَثَهُ الْوَضْعُ مِنْ إِرْهَاقٍ.

آمنة، تَفْضِّلِي يَا ابْنَتِي.

قَالَتْهَا رَاجِيَةٌ وَهِيَ تُعْطِيهَا طَبَقًا بِهِ الْكَثِيرُ
مِنَ الْفَإِيشِ الصَّعِيدِيِّ، مُضَافًا إِلَيْهِ مَاءٌ
مَغْلِي بِالسَّمَنِ الْبَلْدِيِّ وَالسُّكَّرِ.

أَخَذَتْهُ مِنْهَا آمنة وَشَرَعَتْ فِي تَنَاوُلِهِ.

سَلِمَتْ أُمِّي.

قالتها آمنة بعد أول ملعقة.

راجية: بالهناء والشفاء يا بُنَيَّتِي، حمدًا
للَّهِ على سلامتك.

طرقَ عابدين الباب، فتحت له راجية،
اقتربَ من آمنة، قبَّلَ جبينها وقال: حمدًا
للَّهِ على سلامتكِ جميلتي.

آمنة بصوتٍ واهن: سلمتَ لنا أبا زينب.
عابدين بعدما نظرَ إلى الوليدين: بَارِكْ
اللَّهُ لنا فيهما وحفظهما.

اللهمَّ آمين يا ربّ.

قالتها راجية، ثُمَّ حملت أحدهما وتقدّمت
من عابدين قائلة: بسمَل وبرّك.

عابدين ببسمةٍ صافية: بِسْمِ اللَّهِ، اللهمَّ
بارك، حمْلُهُ وقَبَّلَ جبينَهُ ثُمَّ أعادهُ لجدّته.

وضعته راجية بجانب آمنة، وحملت
الآخر وأعطته لعابدين، سمى وحمله،
قبل جبينه ثم أعاده إليها ثانية.

آمنة: الكبير زكريا و.....

قاطعها عابدين بقوله: لا، بل الكبير سالم
والصغير غانم.

آمنة: ولكنك قد اتفقت معي على زكريا.

عابدين: شخي زكريا أغلى مما تتخيلين
صغيرتي، لذا حفظت ودّه بقلبي،
وتعاهدت بيني وبين نفسي على ألا
يكون هذا الاسم الغالي لأيّ أحد!

راجية بعدما هزت رأسها وكأنّها تُوافقه
الرأي: صح، كلامك صحيح يا ولدي.

آمنة بغضب: ما تقوله ليس صحيحًا
عابدين، سأسمي ابني باسم أبي.

نهرتها راجية بقولها: التزمي الصمت يا
امراة، الولد لأبيه يُسميه كيفما شاء، ما
دام الاسم حسنًا جميلًا.

لا حرمك أبدًا خالة، قالها عابدين ثم قبل
يُمنّاها.

أراها ستقيم معنا؟

قالتها ليلي.

ردت عليها سعيدة زوج ولیم: قد أتت
لابنتها بأشياء كثيرة وخيرات أكثر.

ليلي: أجل يا أم عز الدين، فآمنة
وحيدها، كما أن بيت الشيخ زكريا لا
زال عامرًا بالخير.

سعيدة: كَانَ كَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَبِيعَ نَصْفَ
أَرْضِهَا؛ لَتُنْفِقَ عَلَى بَيْتِ ابْنَتِهَا.

ليلي: صَدَقْتَ سَعِيدَةَ، فَعَابِدِينَ لَا يَعْمَلُ مِنْذُ
عُودَتِهِ، لَا يَفْلَحُ فِي شَيْءٍ سِوَى
الْإِنْجَابِ!

ضَحَكْنَا وَذَهَبْنَا لِإِكْمَالِ أَعْمَالِهِمَا الْمَنْزِلِيَّةِ.

بَلَغَتْ زَيْنَبُ عَامَهَا السَّابِعَ بَعْدَ مَوْلِدِ
الصَّغِيرَيْنِ بِشَهْرٍ وَاحِدٍ، أَيَّ فِي شَهْرِ
يُونِيُو عَامِ أَلْفٍ وَتِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّ
وَحَمْسِينَ مِنَ الْمِيلَادِ.

زَادَ الْفَقْرُ وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ، بَيْنَمَا زَادَ بَهَاءُ
زَيْنَبَ وَجَمَالُهَا، فَصَارَتْ تُطْلَبُ لِلزَّوْجِ
حَتَّى قَبْلَ بُلُوغِهَا الْمَحِيضِ!

كُلُّ مَنْ يَرَاهَا يَتَمَنَّاها؛ لِحُسْنِهَا الْمَلْحُوظِ،
فَهِيَ الْمَلِيحَةُ ذَاتُ السَّبْعَةِ أَعْوَامٍ، لَكِنَّ

قوامها قوام فتاة ناضجة الأنوثة، فائقة
الجمال، وهذا ما جعل الخطّاب يتقدّمون
لها راغبين في الزواج منها.

أتعلمين يا آمنة أنّ زينب كلّها أنوثة، هي
المعنى الحرفي للأنوثة يمشي على
قدمين.

قالها عابدين.

آمنة بعدما أنهت رضاعة الصغيرين:
أعلمُ ذلك، دعنا من زينب الآن،
وأخبرني متى ستبحث عن عمل، فالبیت
خالٍ من الخيرات، وأمّي لا تقوى على
تحمل أعبائنا أكثر من هذا، لكنّها لا
تتقوّه.

عابدين: حسناً، سأبحث عن عملٍ بإحدى
القرى المجاورة بدايةً من الغد.

لِيَكُنَ التَّوْفِيقُ حَلِيفَكَ.

قَالَتْهَا آمَنَةٌ وَنَامَتْ بِجَوَارِ الصَّغِيرِينَ.

قَدْ سَأَلْتُ لَكَ صَاحِبَ الْأَرْضِ الَّتِي أَعْمَلُ
بِهَا، إِنْ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى عَامِلٍ أَمْ لَا،
فَوَافَقَ فِي بَادئِ الْأَمْرِ لَكِنَّهُ رَفَضَ فِيمَا
بَعْدَ.

قَالَهَا سَمِيرٌ لِصَاحِبِهِ عَابِدِينَ.

تَتَهَدَّ عَابِدِينَ ثُمَّ قَالَ: شُكْرًا لَكَ عَلَى أَيْةِ
حَالِ سَمِيرٍ.

سَمِيرٌ بَعْدَمَا رَبَّتَ عَلَى كَتْفِهِ: دَعْنِي
أَتَحَدَّثَ مَعَ إِخْوَتِكَ إِنْ أَرَدْتَ.

عَابِدِينَ: تَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ بِخُصُوصٍ مَاذَا؟

سمير: بخصوصِ حقِّك في كُلِّ شيءٍ
بدايةً من البيتِ الكبير ونهايةً بخيرات
الأرض.

عابدين: لا، لا تفعل بالله عليك؛ فإخوتي
وأزواج أخواتي قد اجتمعوا على أكلِ
مالي، وأجبروني على التنازل غُوة وهم
يعلمون أنه لا مكانَ لي سوى بيت أبي.

ربت سمير على كَتفه بحنانٍ وأضاف: لا
تحزن، سيُجازيهم الله بما فعلوا، ثُمَّ تركه
وراح ليُمارس عمله.

عادَ عابدين بخُفي حنينٍ إلى أمانة، لا
يدري ماذا يقول لها؟

رأته جالسًا شارد الذهن، سألتُه عن
العمل الذي بحثَ عنه، لم يُجبها، كررت
عليه السؤال فعادَ من شروده إلى واقعه

المرير، ليقول لها: قد بحثت ولكنني لم
أجد أية فرصة للعمل!

ضربت بيدها على صدرها وأضافت:
ماذا؟

وماذا عسانا أن نفعل؟

ربت عابدين على يديها بحنانٍ بالغ ثم
قال: سيُدبرها الله من حيث لا ندري.

أمنة بعدَ تنهيدة حارة: ونعم بالله العليّ
العظيم، ولكن ما العمل إذا؟

كيف سنعيش بدون مال؟

من أين نطعم أبناءنا؟

وقبل أن تكمل دلفت زينب، تحمل بين
يديها صينية مليئة بالخيرات؛ إذ طهت
راجية بعض الدجاج والأوز وأرسلته

بمِرقِه إلى آمنة، لتَظعم وتُظعم زوجها،
أَمَّا عن زينب فقد طعمت حتّى شَبعت
بمِعيّة جدّتها.

تمرّ الأيام ويتعلّم الصغيران الحَبو؛
تمهيدًا للمشّي على قدمين، بينما الفقر
قد بلغ أقصاه، حتّى كسرة الخُبز إنّ لم
تُسلها راجية يموتون جوعًا!

قد زارَ الاكْتئاب آمنة لأوّل مرّة بعمرها؛
إذ ضيقَ الفقر عليها صدرها فلا تنهأ
بنومٍ ولا بغيره، خاصّةً بعد حملها الأخير
البالغ عُمره الشهرين.

كرهتُ نفسي والحياة، ماذا عساي أن
أفعل؟

قالتها آمنة بصوتٍ حزين.

أخبرتها راجية أن الله لن يضيعها
وسيجبر قلبها عما قريب، لكنها لم تكن
لتفرح بأملٍ قد مات بقلبها، بعد أن دهسه
الواقع دون رحمة.

أصبحت لا تهتم بنفسها، لا تجوع أو قل
تجاهل الطعام، هي لا تريد البقاء على
 قيد الحياة؛ إذ ما فائدة الحياة إن كانت
بلا حياة، مجرد روتين يومي ثقیل على
النفس والقلب، حياة مجردة من الحياة!

انطفأ ضوء آمنة واختفت بسمتها، تحيا
وكأنها جسد بلا روح، كَشَبِحِ سَجْنَتَهُ
تعويذة ملعونة بقبرٍ لا يقوى على
الخروج منه!

لم يبحثوا عن السبب الذي أوصلها إلى
تلك الحال الصعبة، لكنهم أيقنوا أنها

بحاجةٍ إلى شيخٍ من أهلِ الخطوة؛ كي
يصرف عنها ما أصابها من سحرٍ سقيم!

فكّرَ عابدين كيف يُقنعها بالذهاب معه
إلى أحد الدجاجلة، المُتخفي بثياب الورع
والتقوى، حاولَ معها لکنّها رفضت؛ إذ
هو فعلٌ مُحَرَّم.

مرّت الأيام وانقطعَ لبنها، بكى صغيراها
لجفافِ ثديها، ألحَ عليها عابدين وكذا
راجية، حتّى وافقت على ما أرادوا.

في الصباح الباكر أخذها عابدين وذهبا
قاصدين الشيخ (عماد أبو كف)، الشهير
بفك الأعمال، ولأنّ المسافة بين بلدتهم
والمركز بعيدة نوعًا ما، خرجا من البلدة
باكرًا؛ كي يصلا قبل الظهر.

وبعدَ عناءٍ وصلا إلى بيتِ (عماد)، لم
يستطيعا الدخول من كثرة الجالسين أمام
وداخل البيت!

أسرعَ عابدين إلى سكرتير عماد
والمسؤول عن حجز ودخول الزبائن،
أسرَّ له ببعض الكلمات، دلف السكرتير
إلى الغرفة الخاصّة بالكشف، وخرجَ
مُناديًا باسم عابدين.

أمسكَ عابدين بمعصمِ آمنة ودخلا.

غُرْفَة رحبة مُزَيَّنة ببعض النقوش، مقعد
خشبي عظيم القيمة يتوسطها، يقدّمه
موقد حطبي مُتوسط الحجم لكنّه عميق
إلى حدٍّ ما.

عماد، كَهْلٌ سَمِينٌ، يَرْتَدِي جَلْبَابًا أبيضًا،
وَيُزَيِّن جِيدَهُ بِبَعْضِ السُّبُحِ المَصْنُوعَةِ
من العاج.

قد هَرَبَ الهواءُ من غُرْفَتِهِ وحلَّ مَحَلَّهُ
البَخُورُ، بخُورٌ مُتَعَدِّدُ الروائحِ، يُمسِكُ
بِيَدِهِ القَبْضَةَ فيُلَيِّقُهَا بالموقدِ الحَطْبِيِّ؛
لتشتعل بِهِ النيرانُ.

شعرت أَمْنَةً بِأَلَمٍ يَعْتَصِرُ قَلْبَهَا حينَ دَلَفَتْ
تِلْكَ الغُرْفَةَ، تَائِهَةً هِيَ وَيَكَائِنُهَا بَيْنَ الحُلُمِ
وَالْيَقَظَةِ!

أخبرهُ عابدين بخبرها، فما كانَ مِنْهُ إِلَّا
أَنْ تَبَسَّمَ لَهَا وَقَالَ: سَتُصْبِحُ الأُمُورَ عَلَى
مَا يُرامُ، لا تَقْلَقِي، واقتربَ مِنْهَا فبَسَمَلِ
وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهَا.

انتفضت آمنة وشعرت بثقل رأسها،
تذكرت آية الكرسي فأخذت تقرأها سرًا،
رفع عماد يده من على رأسها بسرعة
رهيبة، ورمقها بنظرة تحوي بداخلها
معاني الدهشة المختلفة.

حاول أن يضع يده على رأسها مرة
أخرى؛ لكن آية الكرسي قد أجمته أن
يفعل.

ماذا تفعلين أنت؟

قالها عماد بغضب.

ردت آمنة بثقة: لا شيء سوى تريد
بعض أي الذكر الحكيم، أولست سترقيني
ببعض أي القرآن الكريم؟!

تَبَسَّمَ عَمَادٌ وَأَضَافَ: حَسَنًا، لَا مَكَانَ لَكَ
هُنَا؛ إِذْ أَنَّكَ لَا تُؤْمِنِينَ بِنَا فَلَا دَوَاءَ لِعَلَّتْكَ
عِنْدَنَا.

ثُمَّ نَظَرَ لِعَابِدِينَ وَقَالَ: هِيَ بِخَيْرٍ، لَكِنَّهَا
تُعَانِي مِنَ الْاِكْتِئَابِ؛ النَّاجِمُ عَنْ ضَيْقِ
الْحَالِ وَالْمَعِيشَةِ.

عَابِدِينَ: هِيَ تَشْكُّ بِي شَيْخِي مُذْ عَوَدْتِي
مِنَ الْغُرْبَةِ.

عَمَادٌ: لَا يَا ابْنَتِي، زَوْجُكَ هَذَا مِنَ
الْأَخْيَارِ، قَدْ تَعَرَّفْتُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَالِ شُيُوخِ
الطَّرِيقَةِ، فَلَا تَشْكِي بِهِ ثَانِيَةً.

أَمَنَةٌ مُتَسَاءِلَةٌ بِدَهْشَةٍ: وَمَا الطَّرِيقَةُ؟

عَمَادٌ: طَرِيقَتُنَا الَّتِي نَنْتَهِجُهَا.

عَابِدِينَ: هِيَ لَا تَعْلَمُ سَيِّدِي.

عماد: حسناً، اذهبي يا ابنتي ليحفظك
الإله.

عادت آمنة إلى البيت وقد تسلل شعاع
الأمل لداخلها، أيقنت حينها أن الله معها
ولن يضيّعها، علّمت أنّها لا غنى لها عن
ربّها، حتّى وإن حاول عابدين إبعادها
عن طريقه _ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بطريقةٍ أو
بأخرى، لن تنصاع لأمره ما دام في
معصية الخالق.

قد أنكر عليها حجابها الفضفاض، كما
أنكر عليها حفظها لكتاب الله العزيز،
وكذا صومها للأيام القمريّة، والتزامها
بالسنن والنوافل.

قد ضيّق عليها عيشها حتّى أمرض
نفسها، أمرها أن تخلع حجابها لكنّها لم

تُطْعَ أمره، فزادَ من تضيقه عليها حتّى
فقدت الشغف والأمل، وحلَّ الاكتئاب
ضيّقاً عندها.

لكنّ وبعدَ عودتها قد قويت عزماتها،
وعادَ إليها أملها من جديد، لن يستطيع
عابدين ولا غيره أن يُفقدَها أملها
وشغفها مرّةً أخرى.

الفصل السادس

مَضَتْ الأَيَّامَ وَأَكْمَلَ الصَّغِيرَانِ عَامَهُمَا
الأَوَّلَ مِنْذُ شَهْرٍ، وَهِيَ زَيْنَبُ قَدْ أَكْمَلَتْ
عَامَهَا الثَّامِنَ اليَوْمَ، المُوَافِقَ الرَّابِعَ
عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يُونِيُو لِعَامِ أَلْفٍ
وَتِسْعَمِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَخَمْسُونَ.

زَادَتْ مَلَا حُتُّهَا، فَصَارَتْ غِيْدَاءً، حَوْرَاءَ
تَسْرُّ النَّاضِرِينَ.

رَغِمَ أَنَّهَا لَمْ تَبْلُغِ المَحِيضَ بَعْدَ، إِلَّا أَنَّ
شَبَابَ البَلَدَةِ قَدْ تَقَدَّمُوا لِأَبْيَهِهَا، رَاغِبِينَ
فِي القُرْبِ مِنْهُ وَالزَّوْاجِ مِنْهَا.

قَدْ رَفَضَتْ أَمْنَةَ زَوَاجِ ابْنَتِهَا، مُعْطِلَةً
رَفْضَهَا بِأَنَّ زَيْنَبَ لَنْ تَتَزَوَّجَ إِلَّا بَعْدَ
حَصُولِهَا عَلَى الشَّهَادَةِ الجامِعيَّةِ.

أَنكَرَ عَابِدِينَ إِصْرَارَ آمَنَةٍ عَلَى إِكْمَالِ
زَيْنَبٍ تَعْلِيمِهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْوُقُوفَ
أَمَامِهَا؛ لِعَدَمِ تَحَمُّلِهِ أَعْبَاءِ الْأُسْرَةِ
وَالْإِنْفَاقِ عَلَى أَبْنَاءِهِ.

قَدْ أَتَقَنَتِ زَيْنَبُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، كَمَا
حَفِظَتْ عَشْرَةَ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،
وظَهَرَ نَبُوغُهَا مُذْ دَخَلَهَا الْمَدْرَسَةُ
الْإِبْتَدَائِيَّةَ.

لَا حَظَّ زَيْنَبُ أَنَّ أَبَاهَا يَتْلُو أَوْرَادًا مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، يَحْفَظُهَا عَنْ
ظَهْرِ قَلْبٍ مِنْ كُتَيْبٍ صَغِيرٍ، يَحْمِلُ اسْمًا
غَرِيبًا لَطْرِيقَةً مَا، شَعَرَتْ بِخَطَرٍ بِالْغِ،
هِيَ لَا تَعِي مَا هَيْتُهُ بِالضَّبْطِ، لَكِنْ هَكَذَا
شَعَرَتْ.

لَا أُرِيدُكَ أَنْ تَلْمَسْنِي بَعْدَ الْيَوْمِ.

قالتها آمنة مُحذرة عابدين.

عابدين: لِمَ يا صغيرتي؟

آمنة بغضب: ما دُمتَ ترغب في
المُضاجعة، فلتوفر لنا سكناً، لكن أن
تُضاجعني أمام صِغاري، فهذا برّبي لا
يُرضي الله ولا يُرضيني.

عابدين: هُم لا يفقهون.

آمنة: وزينب، لا تفقه أيضاً؟

عابدين: وما دخل زينب؟

آمنة: قد رأينا البارحة، وجاءتني تبكي
خوفاً عليّ منك!

عابدين: كيف رأتنا؟

آمنة: نومها خفيف، وقد أيقظتها
بصوتك أثناء لقاءنا.

عابدين ببرود: ستكبر وسيُفعل بها ما
رأينا نفعه.

آمنة بغضب: حسناً، لن تلمسني بعد
اليوم، قرار لا رجعة فيه.

تمرّ الأيام ويزداد قحط عابدين، ولولا أنّ
الله قد سخر لآمنة وأبناءها أمّها راجية؛
لهلكوا منذ زمن!

أمّا عابدين فيذهب يومياً لبيوت أخواته،
فيُطعمهنّ ما شاء أن يطعم، ما دام قد
سقى آمنة الحنظل والعلقم فهو حبيهنّ،
إذ يغرنّ منها لكونها ابنة الشيخ زكريا،
بالإضافة لجمالها الأخاذ.

سألت زينب أمّها ذات مساء عن والدها،
فقالت: أمّي، هل يعرف أبي القراءة
والكتابة؟

أجابتها آمنة بالنفي.

صمتت للحظة ثم قالت: إن كان كذلك،
فكيف يحفظ أوراده من كُتَيْبِهِ الخاصِّ
بالطريقة التي يتبعها؟!!

آمنة: قد حفظوه إياها حين كان في
الغربة.

زينب: من هم؟

آمنة: بعض الطيِّبين، قد نصحوه
بالطريقة التي ينتهجونها، وأعطوه العهد
والميثاق.

زينب بدهشة: أيُّ عهدٍ أمي؟

آمنة: عهد الطريقة!

وبعد ستة أشهرٍ قررَ عابدين العودة إلى
حيثُ جاء؛ فقد ضاقتُ به وبأسرته

الحياة، حتّى أنّهم لم يجدوا كسرة الخُبز،
كما افتقرَ بيت الشيخ زكريا _رَحِمَهُ اللهُ،
فصارت الحاجة راجية تقبل بعض
الصدقات من الجامع!

باعت آمنة آخرَ قطعة أرضٍ من أرضِ
أبيها؛ لتُدبر لعابدين مصروفات السفر،
وعدها بأنّ مال الأرض دينٌ برقبتهِ
بجانب ذهبها الذي باعتَهُ لأجلِ سفره
السابق.

مرّت ستة أشهرٍ على سفرِ عابدين، لم
يُرسل خلالها جُنيهاً واحداً؛ لكنَّهُ قد جاءَ
بنفسه.

لم تُصدّق آمنة ما رأتَهُ عيناها، حينَ
دلفَ عابدين مُمسكاً بحقيبةِ سفرٍ كبيرة.

أخبرها بأنَّه قد وجدَ عملاً جيِّداً، ومن
خلاله استطاعَ أن يجمع المال الكافي؛
لشراء بيت يجمعه بأسرته.

سَلَّمَ على آمنة وأبناءه ثُمَّ ذهبَ إلى بيتِ
الحاج محمود، فدفعَ إليه المال الذي
ادَّخره خلال ستة أشهر، وكتبَ لهم
الباشكاتب (جدعون) عقداً ابتدئياً، أخذهُ
عابدين وذهبَ إلى حيثُ قطعة الأرض.

أَرْضٌ عَارِيَّةٌ تُقَدَّرُ مساحتها بـقِـرَاطٍ إِلَّا
رُبْعَ، لَا سَكَنَ حَوْلَهَا وَلَا وَنَسَ، فَقَطْ
نَخِيلٌ يَمْلَأُ الْمَكَانَ هُنَا وَهُنَاكَ.

سَارَ عِدَّةَ أَمْتَارٍ فوجدَ ترعة مياة تروي
ما حولها من أراضٍ زراعيَّة، استبشَرَ
خيراً، ثُمَّ عادَ لأرضه مرَّةً أخرى.

جاءه عز الدين وبدلاً من أن يهنأه قال
له: مبارك يا أبا سالم.

عابدين بعدما صافحه: بُورك فيك يا أبا
يحيى.

عز الدين: وهل ستُعطينا بعضها؛ لنزوّج
به يحيى؟

عابدين مُندهشاً: ماذاااا؟

عز الدين: قد بلغ يحيى مبلغ الرجال منذُ
عامين، وقد آن الأوان لنزوّجه.

عابدين: وما شأني بزواجه؟

عز الدين: كيف وأنت تسكن عُرفته؟!

عابدين: بل عُرفتي.

عز الدين: بل عُرفة يحيى، قد صبرتُ
عليك

كثيرًا، أما وقد أصبح لك بيتًا فلا حقَّ لك
في غرفة يحيى.

عابدين: لكن، هذا بعض حقِّي من البيت
الكبير.

عز الدين ضاحكًا: يبدو أنك قد نسيت
تنازلك عن حقِّك لي.

عابدين وقد تساقطت عبراته: لتصبر
عليّ حتى أقوم ببناء بيتي بهذه الأرض.

عز الدين: لن يحدث، فيحیی لا يقوى
على الصبر أكثر من هذا، لكن بإمكانني
أن أجعله يصبر بضعة أيام بالعدد، لا
أكثر من ذلك.

عابدين بصوتٍ مقهور: كما تريد يا أبا
يحيى.

انقضت المدة التي حدّها عزّ الدين، وها
هي آمنة تحزم أمتعتها؛ استعدادًا للذهاب
إلى بيتها الجديد.

لم يُعْطهم عزّ الدين بعضًا من حبوب
الذرة؛ ليطحنوها ومن ثمّ يصنعون منها
الخبز، بل لم يُعْطهم حتّى غرفة النوم
والأريكة، إذ أخذها ليزوّج بها يحيى.

وصلت آمنة وأبناءها البيت، فرحوا به
رغم بساطته، بيتٌ مكوّن من غرفتين
ودورة مياه، جميعهم من الطوب
الأحمر، أمّا باقي مساحة البيت فقد
تركها عابدين، واكتفى بتدويرها بأربعة
جدران من اللبن.

فتح لهم الباب، باب ضخم مصنوع من
عروق الشجر، به الكثير من الشقوق.

بسملت آمنة ثُمَّ دلفت ودلف معها
الأبناء.

فرحوا كثيراً ويكأنَّ الدنيا ستبتسم لهم..
لم يكونوا يعلمونَ ما يُخبِّأ لهم بداخلِ ذلكَ
البيت!

الفصل السابع

تركهم عابدين بعدما أقامَ معهم شهرين،
ثُمَّ عادَ إلى عملِهِ بِإحدى الدول العربية،
تركهم وقد أَتَمَّتْ زَيْنبُ عامها التاسع،
بينما أَتَمَّ التوأمان سالم وغانم عامهما
الثاني، فقامت أمانة بقطامهما.

تركهم بأرضٍ موحشة، لا ساكنَ بها
غيرهم، لا ماء، لا طعام، لا شيء يُعينهم
ليبقوا على قيد الحياة!

لجأت أمانة لأُمِّها؛ كي تُنقذها من خطرِ
الجوع، لم تُخذلها راجية، فعمَّرت لها
بيتها من الخيرات، بعضها من معاش
الشيخ زكريا _ رَحِمَهُ اللهُ، والبعض
الآخر من صدقات الجامع.

تأكل أمانة وأولادها من الصدقات التي
تأتيهم بها راجية، بينما عز الدين
وإخوته ينعمون بمال زوجها، زوجها
الذي أخذوا منه حقه بميراث أبيه رغمًا
عنه.

مرت الأيام واكتشفت أمانة أنها حامل، لم
تدر ماذا تفعل؟

فبيتها خالٍ من مقومات الحياة، لا مجال
لوجود طفل جديد، يحيا مُعذَّبًا، فقط لأنَّ
أباه مُفتقر لا فقير!

علمت بحُرمة إجهاض الأجنة، فحملته
بين أحشائها، والحزن يعتصر قلبها، لا
حيلة لها ولا سند.

نظرت حولها فوجدت نفسها هي الأب
والأم لأبنائها، أبناءها الذين حرموا

عطف الأبّ وحنانه، بل حُرموا الأبوة
من الأساس، يحيونَ دونَ أبٍ رغم بقاءه
على قيد الحياة!

مغارة بحضن الجبل، لا صوت يعلو فوق
سرعة نبضات القلب، تقدّم منها، خطى
بعض الخطوات، حتّى وصلَ لبابها، وقفَ
بضعة ثوانٍ قبلَ أنْ يدلف.

الظلام يملأ جوفها، اللاشيء يسكنها،
رائحتها مُنتنة قد زكمت أنفه، ورغم ذلك
لم يتأخر، بل أكملَ سيره حتّى توقفَ
بمنتصفها.

خلعَ رداءه الأسود، ثمَّ خرَّ ساجداً،
القهقهة تملأ المكان، وصدى صوتها
يُوحى بالفرع، لكنّه لم يُفزع ويكأنّه

اعتادَ عليها وعلى صاحبها، كما اعتادَ
السجود للآشياء!

_عابدين.

ناداهُ بصوتٍ جهوري مُخيف.

رفعَ عابدين رأسه وقال: لبيك مولاي!

_من أنا؟

عابدين: أنتَ الذي لا يُقهر، أنتَ الذي لا
يَفنى، أنتَ الذي لا يُهزم.

عادتُ القهقهة من جديد.

_صدقت وأصبت بُني.

قالها بصوتٍ خافت هذه المرة، وكأنَّه لا
يُصدّق!

_عابدين.

ناداهُ مرّةً أُخرى.

عابدين: لبيك.

_لِمَ اخترتني؟

عابدين: بل أنتَ مولاي مَن اخترتني.

_آه على مرور الزمن!

لكم انتظرت قدومك منذُ زمن، وها أنتَ
اليوم بينَ يداي.

عابدين بصوتٍ وجِل: خادمُكَ المُطيع
مولاي.

_بل أنتَ ولدي، ولدي الذي لم يُخلق
منّي، بل أنتَ أقربُ إليّ من بنيّ.

عابدين: لأجلِ رضاكم أبذل المزيد.

_لكنَّ الفعلَ مُختلف هذه المرّة.

عابدين: حتّى وإنْ كان.

_غايُتنا هي أسرتك!

عابدين: ماذاااااا؟

_ألا نستحقهم؟

عابدين: تستحقون الأفضل منهم مولاي.

_بل هم.

عَلِمَ عابدين أَنَّ القَرَارَ قَدْ صدر، ولا
يُمْكِنُهُ أَنْ يُوقِفَهُ مَهْمَا فعل، فاستكانَ لأمرِ
اللاشيء.

تمرّ الأيّام ويزداد ظُلم عابدين لآمنة
وأبنائه، ها هي قد وضعت طفلها الرابع،
وهو لا يعلم، بل ولم يُرسل لها قرشًا
واحدًا منذُ سفره.

جاءتها إحدى جارّات بيت أبي المكارم،
لتُخبرها بأنّ عابدين قد سمّى ابنه (عبد

القادر)، اعترضت آمنة لكنّ راجية قد نهتها عن الاعتراض.

بكت آمنة وقالت: قد تركني للعراء وراح، لم يعتلّ همّنا يوماً، أشعر وكأنّهُ يتجاهلنا، قد تزوّجني لأمرٍ الله به عليم.

تساءلت زينب بعدَ ذهاب الجارّة: أمّي، كيفَ علِمَ بوضعك وبنوع الجنين وهو لا يتواصل معنا؟

آمنة بلا مُبالاة: ربّما أخبرهُ عزّ الدين أو إحدى أخواته.

لكنّ زينب لم تقتنع بجواب أمّها.

قد فعلتَ ما طُلبَ منك منذُ البداية، مُذْ لُقينا بك حينَ وقعتَ بقبرٍ وأنتَ صغير، أتذكرُ يا عابدين؟

عابدين بعدَ تهيدة حارة: أجل، وكيف
أنسى مولاي؟

حينها عُدْتُ إلى البيتِ وكأَنِّي شخصٌ
آخر، غير الذي ذهبَ لزيارة قبر والديه!

ـ صدقت، ومن الآن فصاعدًا ستُصبحُ
شخصًا غير هذا وذاك.

عابدين بدهشة: كيف؟

ـ أما وقد حافظتَ على عهدنا مُذْ
عاهدناك، وبعدها قُمتَ بتنفيذ وتلبية ما
طلبناه منك دونَ اعتراض، وموخرًا
وضعتَ الأمانةَ بمحلّها.

عابدين: أجل، قد فعلت مولاي.

ـ حان الآن موعد التكريم، التكريم الذي
لن يَرى مثله أنسي، هو مخصوص لك

وحدك عابدين، كما أننا لن نجد لك
شبيه، فلا بُدَّ وأن يكون التكريم لأنقًا
بكنزٍ نادر كأنت.

عابدين مذهبولاً: أهى المكافأة التي
وعدتني بها مولاي؟

_أجل عابدين، ألا يهَمُّكَ معرفة ماهية
المُكَافأة؟

عابدين بلهفة: بلى يهمني مولاي.

_سأرحمك من ضعفك، وأقويك ببعض
قوتي، سأجعلك سيِّداً، بل ملكاً لقبيلةٍ
عظيمة، ستنتهي رحلة عابدين
الضعيف، وتبدأ رحلة عابدين المُخلص
القوي.

ستكون الأمر الناهي، سأجعلُ سادات
القبائل خدماً لك، وعلى رأسهم (أبدون)!

الفصل الثامن

عابدين وقد اتسعت عيناه من الذهول:

أَبْدُون يا مولاي؟

_أجل، أْبْدُون.

عابدين بعينين لامعتين من شِدَّةِ الفرح:

قد سمعتُ عنه مُذ دلفتُ عالمكم، هو من

الأقوياء المعدودين مولاي.

_أجل، هو ذاك عابدين، ولكن حاشاك أنْ

تُغضبه، فلا أحد يقوى على كَبْحِ غضبه

أو الوقوف أمامه، إنَّ قوّته شديدة،

عارمة، عاتية، فاحذر غضبه.

صوت الهواء يُحيط بالمكان، الشَّمس

حارقة، لا طعام، البيت فارغ من الماء

مُنذُ يومين، مرضت الحاجة راجية فلم

تُعد تأتيهم كما كانت تفعل يوميًا، ضاقت
الدُّنيا بهم، أُسرة كاملة يتمّ تدميرها
بطريقةٍ تكتيكيةٍ!

قد قاطعهم عزّ الدين وإخوته وأخواته
لحظة دخولهم بيوتهم الجديد وإلى الآن،
رغم مرور العام على تلك اللحظة.

ظَلَّت آمنة مُلتزمة بعهدِها لنفسِها، حتّى
وإنْ أظلمت الدُّنيا بوجهها لن تياس، لن
تفقد الأمل ما دام لها ربّ يُدبّر لها
الأمر.

رَبَّتْ أبناءها على الإيمان واليقين بالله
العليّ العظيم، وكذا حُبّ المُصطفى
العدنان وسائر الرُّسل الكرام.

لم تنجح مخططات عابدين في إذلالها
بالفقر، لم تُفلح الأعيبه في سرقة أملها

وقوّة يقينها، بل زادهما الفقر شدّة في صبرها، وقوّة في إيمانها.

أرضعت صغيرها الصبر كما أرضعت إخوته من قبل، زرعت في قلوبهم الصغيرة حبّ خالقهم ومولاهم، قوّة يقينهم بأنّه لا أحد لهم إلّا سُبْحَانَهُ وتعالى، وما دامَ الله معهم فلن يضرهم شيء.

الأيّام تمضي وأمنة تزيد من كفاحها على صغارها، قد أتمّت زينب عامها الثاني عشر، وأتمّت معه ختم القرآن الكريم حفظًا وتلاوة على يد شيخ الكتّاب، بينما أتمّ التوأمان سالم وغانم عامهما الخامس، وكانا قد أتقنا أداء

الصلاة وكذا حفظ التُّلُثِ الأوَّل من القرآن
الكريم.

أَمَّا عن عبد القادر فقد أصابته نَزْلَةٌ
مُعَوِيَّة فَمَاتَ عَلَى إِثْرِهَا بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ عَامَهُ
الأوَّل؛ إذ لَمْ تَجِدْ أَمْنَةَ المَالِ لِتَذْهَبَ بِهِ
إِلَى الطَّيِّبِ، تَرَجَّتْ عِزُّ الدِّينِ وَأَخْوَاتِهِ
لَكِنْ لَا أَحَدَ يُجِيبُ، قَامُوا بِطَرْدِهَا وَأَغْلَقُوا
البابَ دُونَهَا.

نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا: أَيْنَ أَنْتَ يَا عَابِدِينَ؟
ابْنُكَ يَمُوتُ، لَا أَحَدَ يُنْقِذُهُ، أَيْنَ أَنْتَ
وَمَا لَكَ؟

عابدددددددددين!

نطقتها وخارت قُواها فالتزمت الصمت.

عَلِمْتُ أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ،
فَوَضَّيْتُ أَمْرَهَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،
وَجَلَسْتُ تَبْكِي رَضِيعَهَا الْحَنُونَ، تَسَاقَطَتْ
عَبْرَاتُهَا عَلَى جَبِينِهِ، فَفَتَحَ عَيْنَاهُ وَنَظَرَ
إِلَيْهَا وَتَبَسَّمَ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِهَا
وَكَأَنَّهُ يَمْسَحُ لَهَا دَمْعَهَا!

قَبَّلْتُ يَدَهُ وَوَضَعْتُهَا عَلَى قَلْبِهَا، وَكَأَنَّهَُا
تُرِيدُ إِیْصَالَ نَبْضِهَا الْحَنُونَ لِقَلْبِهِ
الصَّغِيرِ.

لَحَظَاتٍ وَكَانَتْ رُوحَهُ الزَّكِيَّةُ قَدْ صَعِدَتْ
لِبَارئِهَا، بِكَتِهِ أَمْنَةً بِصَمْتٍ عَمِيقٍ، يَقْطَعُهُ
أَحْشَاءُهَا قَبْلَ قَلْبِهَا.

عَجَبًا لِهَذَا الْحُزْنِ!

يَدْلِفُ الْقَلْبُ فَيُمرَضُهُ، وَيَعْهَدُ إِلَى
الْأَحْشَاءِ فَيُفْتَتِهَا، وَإِلَى الْعَيُونِ فَيَسْكُنُهَا.

قَصِمَ ظَهْرَهَا وَاتَّشَحَ قَلْبُهَا بِالسَّوَادِ لِلْمَرَّةِ
لَا تَدْرِ كَمْ!

أَوْشَكْتَ امْتِحَانَاتِ الشَّهَادَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ
لِزَيْنَبَ، الْأُمُورَ تَسِيرُ كَمَا خَطَّطْتَ لَهَا
أَمْنَةً، إِذْ لَمْ تُحْمَلْ أَبْنَاءُهَا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ،
يَكْفِيهِمْ مَا يَتَحَمَّلُونَهُ مِنْ فَقْرٍ مُدَقِّعٍ.

عَلَّمَتْ سَالِمَ وَغَانِمَ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ،
وَكَذَا قِصَارَ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ثُمَّ
دَفَعَتْهُمَا إِلَى كُتَّابِ الْبَلَدَةِ لِيُتِمَّا الْحِفْظَ.

تَقْضِي يَوْمَهَا مَعَ أَبْنَائِهَا مَا بَيْنَ صَلَاةٍ
وَذِكْرِ، وَصُومٍ وَتَسْبِيحٍ.

أَمَّا رَاجِيَةُ فَتَقُومُ بِتَرْبِيَةِ الطِّيُورِ، حَتَّى
تَحْمِلَ لَحْمًا ثُمَّ تُعْطِيهَا لِأَمْنَةَ، فَتَذْبَحُهَا
وَتُطْهَرُهَا، لَتُطْعِمَ أَبْنَاءَهَا، وَهَكَذَا تَسْتَمِرُّ
الْحَيَاةَ.

قد اقتسمت راجية معاش الشيخ زكريا
مع ابنتها آمنة؛ لتستطيع الأخرى الإنفاق
على أبنائها.

_أراضِ عما وصلتِ إليه عابدين؟

قالها اللاشيء بصوتٍ جهوري.

عابدين بصوتٍ وجِل: رضاكم غاييتي
مولاي.

سادت القهقهة المكان.

_حسنًا، ولكن ليسَ قبلَ أن تكونَ منّا
فعليًا.

عابدين بدهشةٍ: كيف؟

هنا صمتَ اللاشيء للحظاتٍ ثمّ تابع: قد
اخترتُ لك أقربَ أبنائي إليّ ليتمثّلَ

بجسدك؛ كي يُعطيك من القوّة ما لم
يُعطيها أحدٌ قبلك.

عابدين مُتسائلًا: لا أفهم مولاي.

— أنت المُختار خاصّتنا، قد انتظرنا
قدومك إلى الدُّنيا منذُ زمن، وحينَ أتيت،
كُنّا نترقب الساعة التي سيجمّعنا فيها
اللقاء.

فعلتَ ما طلبناه منك دونَ تأخر، تزوّجتَ
من الصالحة ابنة الصالح زكريا....

عابدين مُقاطِعًا: لِمَ هي دونَ غيرها
مولاي؟

— قد اخترناها لك عابدين؛ إذ منها تكون
الذريّة الصالحة، وحرّبنا نحنُ مع
الصالحين لا مع غيرهم.

عابدين: قد فهمت مولاي.

_أسعِدْ مع بناتي؟

عابدين: لم أشعر قبل إتيانهنَّ بسعادة.

_حسنًا، بعدَ أنْ يسكنك ابني القريب

مَنّي، ستزداد قوَّتكَ، ولن تملَّ منهنَّ أبدًا،

بل ستأتي أضاعفهنَّ عددًا!

عابدين بلهفة: متى ستُسكنهُ جسدي

مولاي؟

_الآن إن أردت ولكن، ثُمَّ صمت.

عابدين: ولكن ماذا مولاي؟

_أتقدر على المُقابل؟

عابدين: أقدر إن شاء لي مولاي.

_نريدُ قربانًا!

عابدين: إنس أم جنّ، أم طير أم حيوان؟

ـ آمنة وذريّتها.

عابدين مشدوها: ولكن....

ـ ولكن ماذا بُني؟

ستملك الأرض بعدَ هذا القربان، ستكون
أقوى بشري على وجه الأرض، ستزيد
مُتعتك، ستتعلم بالذاتِ والمتع، حتّى وإنْ
بلغتَ أرذل العُمر، ستكون بشهوةٍ شابٍ
لم يتعدّى الثلاثون بعد.

عابدين وقد لمعت عيناه: أحقًا مولاي؟

ـ ليسَ هذا فحسب؛ بل سأجعلك ترى
بعيني، وتسمع بأذني، وتخطو بقدمي،
وتضاجع بقوّتي.

عابدين: خادمك المُطيع مولاي، ولكن
ماذا إنْ كُشفَ أمري؟!!

لا تقلق، لن يستطيع أحد أن يُفسد
علينا مخططنا.

انتصب عابدين واقفاً، اقترب منه
اللاشيء وقد تمثّل بصورة رجلٍ ضخم
البنية، يرتدي السواد، ويُتوّج بتاجٍ
عظيم.

وضع يده على رأس عابدين وأخذ
يُطلسم، ثمّ تلا تعاويذه فارتجف جسد
عابدين، واهتزّ من مكانه.

تبسم له اللاشيء وأضاف: قد تفتحت
البوابات، وأصبح الجسد جاهزاً للإقامة!

عابدين قلّ وداعاً لنفسك، فلن تجتمع بها
بعد الآن.

تلا آخر تعاويذه، وبعدها بلحظات سمع
عابدين صوتاً مخيفاً قد أفرعه، ثمّ رأى

شَبْحًا يَقِفُ بِجَانِبِ اللَّاشِيءِ، نَظَرَ إِلَى
عَابِدِينَ وَقَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ طَرْفَ عَابِدِينَ إِلَيْهِ
كَانَ الشَّبَحُ قَدْ أَقَامَ بِجَسَدِهِ!

الفصل التاسع

أُمِّي قَدْ حَدَّثَ مَا رَأَيْتُ بِالضَّبْطِ!

قَالَتْهَا زَيْنَبُ وَهِيَ تَجْلِسُ عَلَى الْبَسَاطِ.

أَمْنَةُ بَدْهَشَةٍ: حَسَنًا يَا ابْنَتِي.

زَيْنَبُ: مَاذَا أَفْعَلُ إِذَا؟

أَمْنَةُ مُبْتَسِمَةً: لَا تُخْبِرِي أَحَدًا.

زَيْنَبُ: أَهِيَ لَعْنَةُ؟

أَمْنَةُ: بَلْ هَبْهَ مَنْ اللَّهَ بِهَا عَلَيْكَ حَبِيبَتِي،

لِذَا اجْعَلِيهَا سِرًّا بَيْنَنَا.

زَيْنَبُ: وَلَكِنِّي أَخَافُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ

أُمِّي.

أَمْنَةُ: لِمَ يَا ابْنَتِي؟

زينب: أحياناً أشعرُ وكأنَّني قد عشتُ
الحلم من قبل، وهذا الأمر يُخيفني أمي.

آمنة: لا تخافي حبيبتي.

زينب: أمي هل يُحبُّنا الله؟

آمنة مُبتسمة: أجل يا ابنتي، يُحبُّنا ونحنُ
أيضاً نُحِبُّه.

زينب: أمي طالما أنَّ الله يُحبُّنا، لِمَ لا
يُغنينا بالفقر موجع ومؤلِّم للغاية؟

آمنة مُبتسمة: سيحدثُ حينَ تكبُرِينَ
وأخويكِ، سيُغنيكم بأعمالكم، لذا تمسكوا
بالتعليم لتأخذوا الشهادات، ومن ثَمَّ
تعملون بها دون الحاجة إلى أحد.

زينب: أعدكِ أمي سأبذل قصارى جهدي
لأُحقِّقَ حلمك.

هل لأميرتي ما تودُّ أَنْ تُفضِّضَ بِهِ
معي؟

قالتها آمنة بدلال.

زينب مُبتسمة: أُمِّي ما هو المَحِيض؟

آمنة بحنان: لِمَ تسألينَ يا أميرتي؟

زينب بحياء: قد سألتني إحدى المُعَلِّمات
إِنْ كُنْتُ بلغت المَحِيضَ أم لا.

تساءلت آمنة: وَمَنْ هي؟

زينب: المُعَلِّمة (شادية).

آمنة: أَهي أُمُّ هَمَّام؟

زينب: هي أُمِّي.

آمنة ضاحكة: حسنًا، تُريدُكِ زوجة

لابنها، ولكنَّ بماذا رددتِ عليها؟

زينب: رددتُ عليها بالنفي.

آمنة: حسناً يا ابنتي، سأخبرك لاحقاً بكل شيء يخصّ المحيض، أما الآن فلتنامي.

زينب: حسناً، تُصبحين على خير يا سيّدي، وقبّلت جبينها.

آمنة: وأنتِ من أهل الخير والسعادة يا ابنة عمري.

جلست آمنة تحرّس صغارها؛ خشية أن يأتّيهم تُعبان من الثعابين، فالمكان يُحيطه النخيل من كلّ جانب، ممّا جعل الثعابين تتخذهُ سكناً لها.

تنظر إلى صغارها تارة وإلى الأنجم تارة أخرى، ثمّ تشكو همّها لربّها، فتذرف عيناها رغماً عنها.

تُكفّف دمعها وتحمدُ ربّها، وتسأله العون والفرج، وتُمسك بمصحفها فتقرأ

ما تيسرَ لها من القرآنِ على ضوء
السراج (لمبة الجاز).

تجلس ببيتها طوال اليوم، بينما يذهب
أبناءها إلى الكُتّاب ثمّ إلى بيت جدّتهم
راجية.

تقوم بعجن الطين ثمّ تسدّ به ما قد تشقّق
من الجدران، كما قامت بصُنع عِدّة
أرُفٍ من اللبن؛ لتضع عليها الأشياء.

أمّا موقدها فقد صنعتُ لها راجية حين
سكنت هذا البيت.

لا تشعر بالحياة أبداً داخل هذا البيت؛ إذ
لا صوتَ يعلو فوق صوتها هي
وأبناءها، يعيشون بالعراء عدا بيتهم
الصغير، يأتي الليل بسدوله ويملاً

الرُّعْب قلوبهم، فأصوات الذئاب تكاد
تختلع القلوب!

تُذَكَّر صغارها بأدعية النوم، فيقرأونها
ويخلدون لنومهم، بينما هي تُحاولهم
بآية الكرسي، وكلّما عوى ذئب زاد
ذكرها لله رب العالمين.

قد تجرأ الذئاب عليها وعلى أبنائها؛ إذ
يأتون كلّ ليلة راغبين في افتراسهم،
الذئاب تعلم جيّدًا هذا المكان، فرحت
حين كانت ذاهبة للشراب من التربة،
فأشتمت رائحة اللحم البشري خلف باب
خشبى مُتهالك.

أسرعت في الحال تلك المجموعة من
الذئاب، مُحاولين كسر الباب وافتراس
من خلفه.

لَكِنَّ أَمْنَةً قَدْ تَصَدَّتْ لَهُمْ، إِذْ جَاءَتْ
بِلِحَافِهَا فَتَدَثَّرَتْ بِهِ وَوَقَفَتْ مَوْلِيَةً ظَهْرَهَا
لِلْبَابِ، مُتَسَلِّحَةً بِذِكْرِ اللَّهِ وَدُعَائِهَا.

كُلَّمَا هَجَمَ الذَّنَابُ هَجْمَةً، اخْتَلَعَ الْخَوْفُ
قَلْبَهَا عَلَى صَغَارِهَا، وَتَسَاقَطَتْ عِبْرَاتُهَا،
فَتَبَرَّاتٌ مِنْ حَوْلِهَا إِلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ،
فَأَمْنَهَا مِمَّا تَخَافُ وَغَادَرَتِ الذَّنَابُ.

رَأَتْ شَبَحًا يَحُومُ حَوْلَهَا فَزِعَتْ لِرُؤْيَيْهِ،
لَكِنَّهَا قَدْ تَذَكَّرَتْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، بِسَمَلَتْ
وَقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ صَرْخَ الشَّيْخِ صَرْخَةً
مُرْعِبَةً، شَعَرَتْ عَلَى إِثْرِهَا بِتَوَقُّفِ
مُفَاجِئٍ لَضْرِبَاتِ قَلْبِهَا.

عَاوَدَتْ الْقِرَاءَةَ فَاخْتَفَى الشَّيْخُ وَكَأَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ!

نظرت حولها فرأت السماء قد عادت
زرقاء صافية، وتساقطت عليها الأمطار.

أيقظتها آمنة لتتوضأ قبل أن يؤذن
لصلاة الفجر.

توضأت على ضوء السراج بدورة المياه
البدائيّة، ثمّ جلست على سجادة الصلاة
تذكر ربّها.

اقتربت منها آمنة وحدثتها برفقٍ قائلة:
ما بكِ أميرتي؟

زينب بعد تنهيدة: لا شيء أُمّي.

آمنة: لكنّ قلبي قد حدثني بأنّ هناك
شيء ما.

زينب مبتسمة: صدق قلبُ آمنة.

آمنة بصوتٍ حنون: هاتِ ما عندكِ، هيا
أخبريني، أنا أسمعكِ.

زينب بصوتٍ يشوبهُ الخوف: قد رأيتُ
حُلماً مُفرعاً أُمِّي.

آمنة وقد احتضنتها: حماكِ اللهُ يا ابنتي،
لا تُحدِثِ بهِ.

زينب: قد أُرعبني أُمِّي.

آمنة وهي تنظر في عينيها: لا تخافي،
أنتِ قويّةٌ باللهِ، قرآنكِ هو حصنكِ
الحصين فتحصني بهِ.

زينب: حسناً أُمِّي.

رُفِعَ أذانُ الفجر، فصلّت آمنة جماعة
بأطفالها، ثُمَّ جلسوا يذكرون الله حتّى
مطلع الشّمس.

آه عليك آمنة!

قالها الراوي وهو يمسح دمه.

سأله أحد الصبية: ما يُبكّيكَ يا مولانا؟

أليست آمنة صالحة؟

الراوي: بلى، صالحة.

أحد الصبية: إذا هي في معية الرحمن،
فالصالح لا خوف عليه وربّ العباد
كفيله.

الراوي مُبتسمًا: صدقت يا ولدي، لكنّ
الذي أبكاني هو الظلم الذي وقع عليها
دون جنائتها.

أحد الصبية: هل سألتَ الرحمن باسمه
العدل؟

الراوي ببسمةٍ رائعة: قد فعلت يا ولدي.

أحد الصبية بكلّ ثقة: إذا سينصرها
ويجبرها.

الراوي: صدقت بُنيّ.

ثمّ تتهدّ قبل أن يُعاود السرد مرّةً أخرى.

ضاقتُ بها دُنْيَاهَا فهرعت لربّها وربّ
دُنْيَاهَا، ظَلِمْتُ مُذْ تَزَوَّجْتَ مَسْخًا قَدْ بَاعَ
دينه بِدُنْيَاهُ، لَكُنَّهَا وَلَطِيبَ قَلْبِهَا لَمْ تَكُنْ
تعلم.

أعطاها الله أولادها واختصّها بأمانتهم،
فكانت ولنعم الأمانة هي!

__عابدين.

عابدين وقد انتصب واقفًا في مجلسه:
لبيك مولاي.

__قد ظهرت العلامات على ابنتك.

عابدين بصوتٍ خائفٍ: ثُمَّ ماذا مولاي؟

قَدْ آنَ الْأَوَانُ لَتُرَوِّي أَرْضَكَ بَعْدَ أَنْ
جَفَّتْ مِنَ الْبُعَادِ.

عابدين: أَتَأْذِنُ لِي بِزِيَارَتِهِمْ مَوْلَايَ؟

لَا، بَلْ بِالْعُودَةِ إِلَيْهِمْ؛ لَتُنْفِذَ أَهْمَ جِزْءٍ
بَخَطَّتْنَا.

عابدين: مَتَى السَّفَرُ مَوْلَايَ؟

بَعْدَ غَدٍ فَتَجْهَزْ.

وَبَعْدَ يَوْمٍ....

أُمِّي هَلْ طَهَوْتُ لَنَا الْبَطَّةَ الَّتِي أَرْسَلْتُهَا
جَدَّتِي؟

قَالَهَا سَالِمٌ.

أَمَنَةٌ بَعْدَمَا قَبَّلَتْهُ: أَجَلٌ، قَدْ طَهَوْتُهَا بُنَيَّ.

سالم: جيّد، أمّي أريدُ طبقًا من مرقها؛
فطعمه لذيذ للغاية.

آمنة مُبتسمة: قد وضعتُ لك بعض
المرق ومعه نصف الكبدة، بطبقك على
الرّف.

أسرعَ سالم ليحتسي مرق البط الذي
يُحبّه.

جاءها غانم، يبدو عليه الحزن، مسحت
على وجهه وقبّلتَه بينَ عينيّه، ثمّ قالت:
ماذا حدّثَ لكُلّ هذا الحزن يا بُنيّ؟

غانم باكياً: أمّي، أينَ أبي؟

تفاجأت آمنة من سؤاله فلم تستطع الردّ.

تابع: ألي أبّ كسائر من في الكُتّاب؟

تَّهَدتْ آمَنَةً قَبْلَ أَنْ تُجِيبَهُ: أَجَل، لَكَ أَبٌ
يَا وَلَدِي.

غَانِمَ بِصَوْتٍ يَقْطَعُهُ الْبُكَاءُ: إِذَا أَيْنَ هُوَ؟
آمَنَةً بِصَوْتٍ حَزِينٍ: قَدْ تَرَكْنَا لِنَوَاجِهِ
مَصِيرَنَا.

وَقَبْلَ أَنْ يُكْمَلَ غَانِمَ، قَالَتْ زَيْنَبُ بِمَرْحٍ
كَعَادَتِهَا: وَمَا الَّذِي يَنْقُصُنَا كِي نَحْتَاجُ
لَأَبٍ وَآمَنَةٍ هِيَ الْأُمُّ وَالْأَبُّ؟!

نَحْنُ عِبَادُ اللَّهِ غَانِمَ، خَلَقْنَا وَلَن يُضَيِّعَنَا،
أَحَبُّنَا فَاخْتَارَ لَنَا آمَنَةً؛ لَتَكُونَ أُمًّا لَنَا، لَا
حَاجَةَ لَنَا فِيهَا سِوَاهَا.

كَفَكَفَ غَانِمَ دَمْعُهُ وَقَبْلَ جَبِينِ آمَنَةٍ، ثُمَّ
سَأَلَهَا عَنْ طَبَقِ الْمَرْقِ الْخَاصِّ بِهِ،
أَخْبَرَتْهُ بِمَكَانِهِ فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرُدَ.

رُفِعَ أَذَانُ الْعَصْرِ، صَلَّتْ رَاجِيَةً فَرَضَهَا
ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى بَيْتِ ابْنَتِهَا.

طَرَقْتُ الْبَابَ، فَتَحَتْ لَهَا أَمْنَةً، وَمَا أَنْ
سَمِعَ الصَّغَارَ صَوْتَهَا حَتَّى جَاءُوا
مُسْرِعِينَ، فَرَحِينْ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ؛ إِذْ لَمْ
تَأْتِيهِمْ مُنْذُ زَمَنٍ.

جَلَسْتُ بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ قَبَّلَتْهُمْ وَقَبَّلُوهُمَا،
أَحْضَرَتْ أَمْنَةُ الْغَدَاءَ، صَحْنًا مِنَ الْأَرْزِ،
صَحْنًا مِنَ الْفَاصُولِ الْبَيْضَاءِ، وَصَحْنًا
مِنَ الْمُلُوخِيَّةِ الْجَافَّةِ، وَصَحْنًا مِنْ مَرَقِ
الْبَطِّ، بِالْإِضَافَةِ لِبَعْضِ الْخُبْزِ، الَّذِي
صَنَعَتْهُ أَمْنَةُ بِيَدِهَا فِي الصَّبَاحِ.

قَامَتْ أَمْنَةُ بِتَوْزِيْعِ الْبَطَّةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَمَا
قَطَعَتْهَا طَبَقًا لِعَدَدِهِمْ.

تتاولوا غداءهم بسعادة؛ لوجود راجية
بينهم.

أتى الليل بسدوله فأغلقت أمانة بابها
جيداً، وأعدت الفرش لأبنائها وأُمّها، ثمّ
اقتربت من الباب لتنام بجواره كعادتها،
لكن راجية منعها ونامت هي بجواره؛
خشية أن تُصيبهم الذئاب بمكروه.

مرّت عليهم تلك الليلة كنسمة هواءٍ
باردة في طقسٍ حارّ، فراجية قد أعطتهم
ما يحتاجون إليه، أعطتهم الأمان.

جلسوا في مُصَلّاهم يذكرون الله حتّى
طلعت الشّمس، فصلّوا الضُّحى، وأخذوا
يُنصتُون لراجية وهي تُحدّثهم عن
صباها وشبابها، بينما أمانة تُعدّ لهم
الفتور.

دقائق معدوداتٍ وكانَ الفطور جاهزًا،
وضعتُه آمنة أمامهم فبسملوا وشرعوا
في تناوله.

راجية بعدما تذوقت البيض المقلي: ما
هذا الجمال يا ابنتي؟

قد قُمتِ بقَدحِ السمن كما يجب أن يكون
فأضفتِ اللذة إلى البيض!

آمنة مُبتسمة: قد تعلّمتُ منك أمي.

زينب: وها أنا أتعلّم منك آمنة.

ربت آمنة على يدها بحنانٍ وقالت: هيّا
لنُكمل إفطارنا؛ كي لا يسرقنا الوقت،
فالיום الجمعة ولدينا الكثير لنفعله.

_عابدين.

عابدين: لبيك مولاي.

ـفصلنا بعض الوقت عن تطبيق الجزء
الثاني من الخطّة، لا تنسَ العهد، إيّاك
أنْ تحنو عليهم، أنتَ ولدي الآن لا
عابدين الأنسيّ!

عابدين بلا مُبالاة: حسنًا مولاي.

يا حضرة، يا حضرة.

قالها الراكب المُجاور لمقعد عابدين
بالقطار.

عابدين بعدما فتحَ عَيْنِيهِ بصعوبة: ماذا
تريد؟

ـأُحدّثُ نفسك يا رجل؟

عابدين ضاحكًا: هكذا أفعل حينَ أنام؛
رُبما للترويح عن النفس.

ضحك الراكب وأضاف: على راحتك،
أردتُ إخبارك بأنَّ المحطّة القادمة
ستكون وجهتك فتجهز.

عابدين: حسناً، شكراً لك.

الراكب: على الرُحْبِ والسعة.

أخذَ عابدين يُفكر، كيفَ سيُقابل أمانة
بعدما خيانتَه لها ولأبنائه؟

هل سيفرحونَ بعودته؟

هل لا زالوا يذكرونه؟

هل وهل وهل؟

لكنَّه تذكّر قول اللاشيء "إن لم تكن أهلاً
لهذه المَهمة، فلدينا الكثير لنفعله".

ظلمَ نفسه حينَ أخفى ما حَدَثَ له هُناك،
بأرضِ الغُربة، حينَ أتاهُ أحدُ السودانيين

العاملين بتلك الدولة؛ ليسلبه دينه دون
علمه.

حاول العودة، لكنّ العهد قد أبطل
مُحاولته.

ها هو الآن، قد عاد ولكنّ، ليس كما
كان؛ ليكون بداية مرحلة ابتلاء جديدة،
تُضاف للمراحل التي مرّت بها آمنة من
قبل!

الفصل العاشر

رُفِعَ أَذَانُ الظَّهْرِ بَعْدَ أَنْ اغْتَسَلُوا جَمِيعًا،
صَلُّوا وَرَاحَتِ آمَنَةٌ لَتُعَدَّ لَهُمُ الْغَدَاءُ،
بَيْنَمَا رَاجِيَةٌ تَقْصُ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ
الشَّيْخُ زَكْرِيَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ اغْتِسَالٍ
وَتَطْيِيبٍ، وَصَلَاةٍ وَذِكْرِ، وَقِرَاءَةِ سُورَةِ
الْكَهْفِ، ثُمَّ يَخْتَمُ آخِرَ سَاعَةٍ مِنَ الْيَوْمِ
بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَامَتْ آمَنَةٌ بِغَسْلِ الْبَاذَنْجَانِ وَالْبَطَاطُسِ،
وَالْفَلْفَلِ الْأَخْضَرِ وَالْطَّمَاظِمِ، ثُمَّ قَطَعَتْهُمْ،
الْبَاذَنْجَانِ عَلَى هَيْئَةِ حَلَقَاتٍ، وَالْبَطَاطُسِ
وَالْفَلْفَلِ عَلَى هَيْئَةِ أَصَابِعٍ، بَيْنَمَا قَطَعَتْ
الطَّمَاظِمِ إِلَى شَرَائِحِ.

كانت قد وضعت الزيت بالمقلاة على النار، انتظرت حتى سخن، ثم أخذت تقلي البطاطس، وبعدها الباذنجان، وأخيرًا الفلفل.

وبعد أن انتهت، تبّلت شرائح الطماطم بالملح والكمّون، والقليل من مسحوق الفلفل الحار، وقامت بعصر ليمونة خضراء، ثم قدّمت لهم الغداء.

وصل عابدين بعد أن توقف القطار بمحطة المركز، أخذ يتمشي حتى وصل إلى موقف إحدى القرى المجاورة لبلدته.

اتفق مع السائق أن يوصله إلى مدخل البلدة، وأعطاه أجره.

وبعد ساعة وصلَ عابدين، شكرَ السائقَ
وأكملَ طريقَهُ سيرًا على الأقدام، حتَّى
وصلَ إلى بيته.

أينَ الشاي بالنعناع يا أمنة؟

قالتها راجية.

آمنة بعدما وضعت أمامها الكوب: ها هو
أمِّي.

راجية: سلمت يُمناكِ وسلمتِ آمنة.

آمنة بعدما قبّلت يُناها: اللهم وإيّاكِ
أمِّي.

زينب بمرح: وأنا أينَ قبّلتِ يا آمنة؟

اقتربت منها آمنة، وقبّلتها بينَ عينيها،
ثمَّ أضافت: دُمتِ لي ملكتي الصغيرة،
جبرني اللهُ فيكِ يا ابنة عُمرِي.

زينب بعد أن ردت لأمها القُبلة: وأنت
كذلك ملكتي الكبيرة، سيّدة قلبي وتاج
رأسي.

طرق عابدين الباب، نهضت راجية،
قامت بفتح الباب، وما أن رأتَهُ حتّى
سقطت عصي الخيزان من يدها.

تقدّمت آمنة لترى من الطارق؟

عابدين!

قالتها آمنة بهمسٍ والدمع يتساقط من
عينها.

دلف عابدين والدمع يملأ عينيه، نظرَ
إلى آمنة بعُمقٍ ثمّ قال: قد كبرتِ
صغيرتي.

آمنة بعد أن رفعت يده من عليها: دعني
وشأني.

اقترب من راجية وقبل يمناها: دُمت لنا
ولا حرمنك خالة.

أخذ ينظر إلى أولاده وكأنه لا يعرفهم!

هذه زينب، سلمي على أبيك.

قالت راجية لترفع عنه الحرج.

اقتربت منه زينب، صافحته وقبلت يده
وجبينه.

احتضنها فذرفت عيناه، وتذكر ما قيل له
بشأنها: "هي صفوة ما أخرجهُ صُلبك،
لذا ستكون هي الجزء الثاني والأهم من
خُطتنا".

أبي، ماذا هناك؟

قالتها زينب بعينين دامعتين.

كفكف عابدين دمعهُ وقال: لا شيء يا
ابنتي، فقط أشتاق إليكم.

أهذا هو أبي أمي؟

قالها غانم بفرح، ثمّ عانقه وتابع: قد
حُرمتك أبي، حتّى كلمة أبي أقولها لأوّل
مرّة بعمرى.

عابدين: ستقولها ولن تُحرمها ثانية
بنيّ.

عابدين مادّا يدهُ لسالم، لكنّ سالم لم
يبادلهُ المصافحة ولا الشعور.

أنت مُنتحلّ شخصية أبي، لكنّك لست
هو!

قالها سالم بغضب.

عابدين وقد اهتز كيانه، وارتعدت
فرائصه: ما الذي تقوله يا بُنيّ؟

سالم بغضبٍ أكبر: أقول الحقيقة يا
كذاب.

آمنة وقد احتضنته لتُهدأ من حدة
غضبه: سالم لا تقل شيئاً، فقط اهدأ.

راجية: صغير ولا يعي ما يقوله.

عابدين ببسمةٍ مُسطنعة: هداة الله
وأدامه لي.

لم يكذب سالم فيما قال، لكن كيف عرف
الحقيقة؟

وهل سيتركه عابدين بعدما كشف أمره؟

أم أنّ الخطّة ستتغير ليكون سالم بديلاً
لزينب؟!

انزوتُ بهِ آمنةٌ في رُكنِ الغرفةِ، وأخذت
تربت على كتفه، ثُمَّ قالت: ما الذي تقوله
عن أبيك بُنيّ؟

سالم بعينينِ غاضبتين: ليسَ أبي، هذا
مُنتحلّ وكذاب.

آمنةٌ بهدوءٍ: وكيفَ عرفت؟

سالم بعينينِ دامعتين: أينَ كانَ حينَ
احتجنا إليهِ إليهِ فلم نجدّه؟

أينَ كانَ حينَ مرضَ وماتَ أخي عبد
القادر، فقط لعدم وجود المال؟

أينَ كانَ والشَّمسُ تُلهبُ جلودنا
بحرارها المُرْتَفعة؟

أينَ كانَ وبردَ الشتاءُ يؤلمُ عظامنا قبلَ
أجسادنا؟

أَيْنَ كَانَ حِينَ لَمْ نَجِدَ مَا نَقْتَاتُ بِهِ فَنَصُومُ
الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي؟

أَيْنَ كَانَ حِينَ مَدَّتْ جَدَّتِي رَاغِيَةً يَدَهَا،
لِتَأْتِيَنَا بِصَدَقَاتِ الْمَسْجِدِ كَيْ لَا يُهْلِكُنَا
الْجُوعُ؟

بَكَتْ آمَنَةً وَلَمْ تَسْتَطِعِ الرَّدَّ، فَكَلَامُهُ
صَحِيحٌ لَا مَجَالَ فِيهِ لِلتَّكْذِيبِ.

سَمِعَهُ عَابِدِينَ فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَعَيْنَاهُ
تَذْرِفَانِ، ثُمَّ قَالَ: هَا قَدْ عُذْتُ بِنُبِيِّ،
سَامَحْنِي عَلَى مَا فَاتَ، وَحَاسِبْنِي فِيمَا
هُوَ آتٍ.

نَظَرَ إِلَيْهِ سَالِمٌ وَقَالَ: هَكَذَا تَكْذِبُ عَلَيَّ،
ثُمَّ تُسَافِرُ وَتَنْسَانَا.

عَابِدِينَ بَعْدَ أَنْ أَمْسَكَ وَجْهَهُ وَنَظَرَ
بِعَيْنَيْهِ: لَنْ يَحْدُثَ يَا ابْنَ قَلْبِي.

جَالٌ بِبَصَرِهِ وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ مَا!

أَمْنَةٌ بِصَوْتٍ يَقْطَعُهُ الْبُكَاءُ: قَدْ مَاتَ عَبْدُ
الْقَادِرِ.

عَابِدِينَ وَقَدْ ضَغَطَ عَلَى أَيْسَرِ صَدْرِهِ
بِقُوَّةٍ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

أَمْنَةٌ: مَاتَ بِسَبَبِكَ، بَلْ أَنْتَ مَنْ قَتَلْتَهُ؛
حِينَ تَرَكْتَنَا فِي الْعَرَاءِ دُونَ غِذَاءٍ وَلَا
مَالٍ نَبْتَاعُ بِهِ الدَّوَاءَ.

تَرَكْتَنَا وَظَلَمْتَنَا، قَتَلْتَ عَبْدَ الْقَادِرِ وَكَدْتَ
تَقْتُلُنَا جَمِيعًا، لَوْلَا أَنْ مَدَّتْ أُمِّي يَدَهَا
لَتَأْتَيْنَا بِصَدَقَاتِ النَّاسِ مِنَ الْجَامِعِ، فِي
حِينَ أَنَّ إِخْوَتَكَ يَتَنَعَّمُونَ فِي خَيْرٍ كُنْتَ
أَنْتَ السَّبَبُ فِيهِ.

وَالْآنَ وَبَعْدَ مَرُورِ الْأَعْوَامِ عُدْتُ، لَيْتَكَ لَمْ
تَعُدْ!

أراك عائدًا لأجل المضاجعة.

نهرتها راجية، لحديثها الفجّ أمام
الصغار، لكنّها لم تستطع أن تُسيطر
عليها.

آمنة بغضب: مضاجعة ماذا وأنت
متزوج بتلك الدولة؟

عابدين مندهشًا: متزوج؟

أنا لم.....

قاطعتها آمنة بقولها: قد كبرت الصغيرة
يا عابدين، بل زدتُ عمرًا فوق عمري؛
حينَ بحثتُ عنكَ فلم أجِدكَ بجواري، في
وقتٍ كنتُ أحوج ما أكونُ إليك فيه.

بكت ثمّ تابعت: شاخت الشابة عابدين،
حينَ وجدتني الأب والأمّ لهذه الأسرة،

أرأف وأنهر، أحنو وأقسى، أضرب
وأضم.

انقسم قلبي لنصفين، نصف يبكي،
والنصف الآخر بالكاد يكفيني.

اقترَبَ عابدين منها بعينين دامعتين:
سامحيني جميلتي، لن أخذك ثانية.

نظرت إليه آمنة بلا مُبالاة ولم تردّ عليه.

وبعد ساعة.....

زينب هل فعلتِ ما طلبته منك؟

قالتها راجية.

زينب وهي تُمسِكُ بالوسادة: أجل جدّة،
قد فعلت.

راجية: حسنًا، ثُمَّ نظرت إلى آمنة
وقالت: خُدي زوجكِ وادلفي الغرفة؛
فلديه الكثير ليُخبركِ بهِ.

آمنة بصوتٍ حادٍّ: لا، لن أفعل.

راجية بصوتٍ حازم: بل ستفعلي.

عابدين: دعيها وشأنها حالة.

وبعدَ دقائق دلفت آمنة الغرفة، ثُمَّ لحقتها
عابدين وأغلقَ دونه الباب.

راجية: ستفترشون الأرض وتنامون
هناك، بينما السرير سيكون لأبيكم وأُمَّكم
فقط.

زينب: لِمَ لا ننام هنا كُلُّنا؟

راجية: لا يصح؛ فالأزواج لا بُدَّ وأنَّ
يكون لديهم خصوصيّة، فلا يطلع أحد
على مكان نومهم.

سالم: لكننا سننام بغرفة أبي وأُمِّي.

راجية: لضيق الحال يا ولدي ستنامون
جميعًا بغرفةٍ واحدة، أمّا هذه الغرفة
فستكون لتخزين الماء والغذاء، وكذا
للجلوس وضيافة الضيوف.

وقبلَ أن يتحدّث غانم، علا صوت تأوه
خارج من غرفة آمنة، أسرعتُ الجدة
إلى الغرفة لترى ما الذي يحدث؟

كانَ عابدين قد أغلقَ البابَ بإحكامٍ شديد،
فلم تستطع راجية فتحه، لكنّها أخذت
تطرّقه رغم استمرار تأوه آمنة!

الفصل الحادي عشر

أخذت راجية تُنادي على آمنة حتّى فتح لها عابدين الباب، فأسرعت بالدخول للإطمئنان على ابنتها، بينما الصغار يكون بالغرفة الأخرى.

مُسْتَلْقِيَةٌ لَا تَقْوَى عَلَى الْحَرَكَةِ، تَنُ بَصَوْتٍ هَادٍ؛ كَيْ لَا تُثْقَلَ صَغَارُهَا.

اقتربت منها راجية والدمع يتساقط من عينيها، فسألتها: ما الذي حَدَثَ؟

لَمْ أَنْتِ بِهَذِهِ الْحَالَةِ؟

مَاذَا فَعَلَ بِكَ؟

وَاللَّهِ لَا أَقْتُلْنَهُ إِنْ أَصَابَكَ بِأَذَى.

جلست آمنة بصعوبة، ثُمَّ قَالَتْ: لَمْ يَفْعَلْ شَيْءٌ أُمِّي.

راجية بدهشة: كيف وأنت بهذه الحالة؟

آمنة بعدما كفكفت دمعها: قد جامعني
فأنزف جسدي.

راجية: أهذا كُلّ ما حدث؟

آمنة: أجل أمّي.

راجية وقد ربتت على كتفها بحنان: لا
بأس، سيتوقف نزفك ويطيب جرحك،
رُبما يشتاقُ إليك بعد غيابٍ طويل.

آمنة: رُبما.

راجية تنظر في عينيها: ما لك؟

آمنة: قد شعرتُ بالغربة معه أمّي، وكأنّه
كما قال سالم "مُنتحلّ وكذاب".

ضحكت راجية ثم قالت: يا امرأة، ما
تشعرين به نتيجة غيابه عنكِ طيلة
الأعوام السابقة لا أكثر.

آمنة وهي تحاول النهوض: ربما.

خرجت آمنة من الغرفة فوجدت صغارها
يبكون، أسرعت إليهم فأحتضنتهم،
وسألتهم عن السبب، فأجابوها بأنهم قد
شعروا بالقلق عليها.

مسحت على رؤوسهم وقالت: لا تخافوا،
فأنا بخير، والآن هيا اقعدوا مع جدّكم
ريثما أستحمّ.

اغتسلت آمنة ثمّ قعدت مع صغارها
يتحدّثون إلى عابدين.

عابدين: قد كبرتم أبنائي الأعزّاء، دُمت
لي ولا حرمتكم أبداً.

آمنة: هُم وديعتي عند الله.

تَغَيَّرَ لَوْنُ عَابِدِينَ، وَكَأَنَّ مَا قَالَتْهُ قَدْ
أَشْعَلَ النَّارَ بِدَاخِلِهِ!

راجية: جبركما الله بهم.

عابدين: آمين.

زينب: أباي، كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ أُمِّي قَدْ
وَضَعْتَ ذَكَرًا، وَأَنْتَ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
بِحَمْلِهَا؟!

تَلَعَثَ عَابِدِينَ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الرَّدَّ، بَيْنَمَا
آمنة قَالَتْ بِلا مُبالاة: عَنْ طَرِيقٍ وَلَيْمَ أَوْ
حُسْنٍ.

عابدين مُبتسمًا: أَجَلْ، قَدْ أَخْبَرَنِي أَخِي
وَلَيْمٌ؛ حِينَ اتَّصَلَ سَعْدٌ بِبَيْتِ أَبِيهِ الْحَاجِّ
رَاجِي، فَأَسْرَعَتْ الْخَالَةُ كَامِلَةً لِتُخْبِرَ

إخوتي، وما إن فعلت حتّى أسرع ولیم
واستأذن من سعد، فنادني سعد لأهاتفه.

رُفِعَ أذان المغرب، صلّوا جميعًا عدا
عابدين؛ إذ أصر على الصلاة بالجامع،
تحديدًا بالصف الأول.

أعدّت زينب العشاء هذه المرّة، عادَ
عابدين من الجامع، ألقى عليهم السّلام
وقعد ليتناول معهم الطعام.

نظرت إليه زينب وقالت: ألم تُسمّي الله
يا أبي؟

تلعثم ثمّ قال: قد فعلت سرًّا يا ابنتي.

زينب: بالهناء والشفاء.

آمنة: هذا العشاء قد أعدّته زينب
بمفردها.

عابدين مُبتسمًا: ما شاء الرحمن على
جميل صنْعكِ يا ابنتي.

زينب مُبتسمة: سلمتَ أبي.

هيّا لتُوصلني إلى بيتي عابدين.

قالتها راجية بعدما انتهت من تناول
الطعام.

عابدين: لتُقيمي معنا يا خالة.

راجية وقد ارتدت الحُبرة: جعلهُ الله
عامرًا بك يا ولدي، لن أُضيّقَ عليكم.

عابدين: كما تُريدين يا خالة.

آمنة: ليحفظكِ الله أمّي.

اصطحبَ عابدين راجية إلى بيتها، بينما
زينب تُعدّ الفرُش لها ولأخويها، لتكونَ
جاهزة وقت النوم.

رُفِعَ أَذَانُ الْعِشَاءِ بَعْدَمَا أَوْصَلَ عَابِدِينَ
رَاجِيَةً، فَدَلَفَ الْجَامِعَ لِيُصَلِّيَ بِالْصَفِّ
الْأَوَّلِ.

صَلَّتْ آمَنَةُ وَأَوْلَادُهَا، ثُمَّ جَلَسُوا عَلَى
فُرُشِهِمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أَبِيهِمْ، الَّذِي عَادَ
بَعْدَ غِيَابٍ طَوِيلٍ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: هَلْ نَحْنُ
نَحْلُمُ أُمِّي؟

رَدَّتْ آمَنَةُ بِبِسْمَةِ: بَلْ نَعِيشُ وَاقِعًا زَيْنَبُ.

زَيْنَبُ: أُمِّي هَلْ يَمْلِكُ الرَّجُلُ قَلْبًا مِثْلَمَا
تَمْلِكُ الْمَرْأَةُ؟

ضَحَكَتْ آمَنَةُ وَأَجَابَتْ: أَجَلْ، يَمْلِكُ الرَّجُلُ
قَلْبًا مَا دَامَ إِنْسَانًا!

زَيْنَبُ: إِذَا كَانَ أَبِي يَمْتَلِكُ قَلْبًا، كَيْفَ لَمْ
يَشْعُرْ بِحَاجَتِنَا إِلَيْهِ؟

بل كيف يبتعد عنا ونحنُ أحوج ما نكون
إليه؟

آمنة: لا أدري ماذا أقول يا ابنتي؟

زينب: لا عليكِ أُمِّي، وكما تقول جدتي
راجية: "الأيام كشّاف الحقائق".

ضحكت آمنة وقالت: صدقت جدتك يا
فلذة كبدها، ألا تنامين كما فعل أخويك؟

زينب بعدما قبّلتها: بلى، سأنام فأنأ
مُرَهقة بعض الشيء، تُصبحين على خيرِ
أُمِّي.

آمنة: وأنتِ كذلكِ يا ابنتي.

استلقت آمنة على سريرها، وأخذت تقرأ
أذكار النوم، التي تحفظها عن ظهر قلبٍ
حتى نامت.

هدوء مُرعب يسكن البيت، يقطعهُ صوت
عواء الذئاب المُجتمعة أمامه.

ظلامٌ دامس يملأ الأرجاء، عدا الغرفة
التي تنام بها آمنة وصغارها.

حركة خفيفة تحدث وتوقف من حين
لآخر!

عادَ عابدين بعدَ مُنتصفِ الليل، فتحَ
الباب ودخل، وجدَ سراجًا وبجانبه
الكبريت، كانت آمنة قد أعدّته له قبل أن
تنام.

أشعلَ السراج، وأنارَ به الطريق ما بين
الغرفتين.

دلفَ الغرفة فأطفأه، وخلعَ ثيابه، ثمَّ
استلقى بجانبِ آمنة وراحَ في سُباتٍ
عميق.

ظُلْمَةٌ حَالِكَةٌ، لَمْ يَرَ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلَ، رَائِحَةٌ
مُنْتَنَةٌ مُنْتَشِرَةٌ بِالْجَوِّ، الصَّمْتُ يُخَيِّمُ عَلَى
الْمَكَانِ، نَظَرَ فَلَمْ يَعِيَ أَيْنَ هُوَ؟

حَاوَلَ جَاهِدًا أَنْ يَعْرِفَ مَا هِيَ الْمَكَانُ،
لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ، سَمِعَ صَوْتًا يُنَادِيهِ، تَبَعَ
الصَّوْتَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى هُنَاكَ، مَقْبَرَةٌ
قَدِيمَةٌ مُتَهَالِكَةٌ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا (الْرَاحِلُ
عَابِدِينَ بْنُ يَحْيَى ابْنَ أَبِي الْمَكَارِمِ، تَارِيخُ
الْوَفَاةِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيْسَمْبَرِ، عَامِ أَلْفِ
وَتِسْعِمَائَةِ وَسَبْعَةٍ وَتِسْعُونَ، سَبَبُ الْوَفَاةِ
غَيْرُ مَعْلُومٍ).

أَصَابَهُ الذُّهُولُ وَالْفُضُولُ، فَحَاوَلَ أَنْ
يَتَأَكَّدَ بِنَفْسِهِ مِنَ الْجَنَّةِ الْمَقْبُورَةِ، فَتَحَ
بَابَ الْمَقْبَرَةِ، ثُمَّ دَلَفَ مُسْتَعِينًا بِضَوْءِ
الْقَمَرِ، الَّذِي يُنِيرُ الْمَكَانَ.

استقرَ بداخل المقبرة، وما أن فعلَ حتّى
أُغلقت عليه من الخارج!

أخذ يُنادي ويُنادي، لكن لا أحد يسمع أو
يُجيب.

ركل الباب بقدمه فأتاه صوت زينب من
بعيد، تُناديه أن يعودَ قبلَ فوات الأوان،
لكنّه لم يستجب لها، فقط يُريدُ أن يخرج
من المقبرة.

جاءته زينب وفتحت له الباب، خرجَ
مُسرعًا ليُقبّلَ قدمها، قالت له: احمد الله
يا أبي، أن أعطاك فرصة البقاء على قيدِ
الحياة، هيّا لنعودَ سوياً قبلَ أن يُغلق
الباب.

عابدين: باب ماذا؟

زينب: باب التوب.

عابدين: وهل لمثلي توبة؟

زينب: رُبّما، يكفي أن لا تُطيلَ أجل
عملك السيء، اقتله بالتوقف عن ما لا
يرضاه الله.

عابدين بحسرة: أنتِ لا تعرفين شيء.

زينب: أما يكفيك علم الله بك؟

رفع عابدين بصره إلى السماء فهطل
الدمع من عينيه، ولكنّه تحوّل فجأة إلى
شبحٍ دميم!

أسرعت زينب بالهرب من أمامه، بعدما
تسبّب في خوفها، لكنّه كان أسرع منها؛
إذ وجدته ينتظرها بآخر الطريق!

الفصل الثاني عشر

أبي بالله عليك لا تقتلني.

صرخت بها زينب وهي نائمة.

أسرعت إليها آمنة، احتضنتها، وأخذت
تتلو عليها من آي الذكر الحكيم حتى
هدأت.

عابدين: ما بك يا ابنتي؟

صرخت زينب: أبعديه عني أمي.

آمنة: عد إلى نومك عابدين.

عاد إلى نومه وكان شيئاً لم يكن.

زينب بصوتٍ يقطع البكاء: أراد قتلني
أمي.

آمنة: ما رأيته كابوس بُنيّتي، فلا تُحدّث
به.

نامت بجوارها حتّى اطمأنت ونامت هي
الأخرى.

مرّت الليلة بصعوبة شديدة على
عابدين، أكثر ما أخافه فيها هو الكابوس
الذي رآته زينب، فأفزعها وأفزعتة هي!

وفي صباح اليوم التالي.

تناول عابدين الفطور مع آمنة
وصغارهما، لكنّ زينب لم تكُن كعهدها،
فقط تنظر إليه بصمتٍ تارة، وتُفكر فيما
رآته بحلمها تارةً أخرى.

عابدين ببسمةٍ مُسطّعة: زينب، كيف
حالك في الدراسة؟

زينب بعدَ دقيقة: الحمدُ لله.

عابدين: أراكِ مُجتهدة يا أمّ أبيها.

زينب بدهشة: أمّ أبيها؟!!

عابدين: هذا القلب هو الأقرب إليك، فما وجدتُ أحَنَّ عليّ منك بعدَ موت أمّي.

زينب: سلمتَ أبي.

غانم: أبي، أينَ شيءي؟

عابدين: أشياء ماذا؟

سالم: يقصد الأشياء التي أحضرتها لنا من خارج مصر.

عابدين مُبتسمًا: بعدَ قليل سأفتح الحقيبة، ويأخذ كلّ ذي حقّ حقه.

آمنة: دُمتَ لهم عابدين.

عابدين بهمسٍ: وأنتِ كذلكِ يا امرأتي.

آمنة بذات الهمس: آمين.

فتح عابدين الحقيبة وأعطى كُلَّ واحدٍ
منهم ما اختصه به من أشياء، ثُمَّ أخذ
الحقيبة ودلف الغرفة وتبعته آمنة؛
ليُعطيها أشياءها.

تفضلي عزيزتي.

قالها عابدين وهو يُعطيها قميص نومٍ
أحمر اللون.

آمنة مُبتسمة: ما هذا الجمال؟

عابدين: سيكون أجمل على قوامكِ
المُثير.

آمنة بدلال: ابتعد عني، فنزفي لم يتوقف
بعد.

عابدين: سأصنع لك خلطة توقفه على الفور.

آمنة: حسناً.

أخرج عابدين من الحقيبة بعض الصديّات، وما أن أعطاها لآمنة حتّى ضحكت وقالت: ما لك يا رجل؟

عابدين: لقد قُمتُ بشراء ما يلزمك؛ كي لا تحرميني مُتعتكِ جميلتي الصغيرة.

آمنة: صغيرة!

عابدين: أجل صغيرة.

آمنة: الصغيرة قد كبرت واقتربت من الكهولة يا زوجها.

عابدين: لا بأس، آمنة قلبي وأمانه، ما رأيك أن تُريني القميص عليك؟

آمنة: قُلْتُ لَكَ أَنَّ نَزْفِي لَمْ يَتَوَقَّفَ بَعْدَ.

عابدين: سَأَقْرَأُ عَلَيْكَ مَا تَسِرَ مِنْ
الْقُرْآنِ.

آمنة: مُنْذُ مَتَى؟

عابدين: مَاذَا تَقْصِدِينَ؟

آمنة: أَقْصِدُ مُنْذُ مَتَى وَأَنْتِ تَرْقِي؟

عابدين: قَدْ عَلَّمَنِي الْأَسْيَادَ الرُّقِيَّةَ
الْشَّرْعِيَّةَ.

آمنة بدهشة: مَنْ؟

عابدين: أَسْيَادِي.

آمنة: وَمَنْ يَكُونُونَ؟

عابدين: عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

آمنة: حَسَنًا.

ارتدت أمانة القميص كما طلبَ منها
عابدين، وما أن فعلت حتّى ظهرَ قوامها
الرشيق، ويكأنّها فتاة لم تبلغ الخامسة
عشرَ بعد!

عابدين بلهفة: هذه هي آمنتى، أعشقتكِ
يا امرأة، ولا غنى لي عنكِ مهما كانت
الإناث من حولي.

أمانة بدلال: حسناً.

همَّ بها رغم نزفها، الذي أحدثهُ البارحة،
لم تستطع منعه؛ إذ غلبها الشوق
فسأمت له نفسها، وأحييت معه ذكرى
زواجهما.

مرّت الأيام، وزادَ وعي زينب، حينَ رأت
والدها يتلو أوراذاً لا أصلَ لها من الكتابِ
والسُنّة، بل ويقطع المساحات الشاسعة

سفرًا، قاصدًا الأضرحة، وما أدراك ما
الأضرحة؟

قالها الرواي وذرفت عيناه.

ظَلَّ هَكَذَا لِبُرْهَةِ، وَالصَّبِيَّةَ حَوْلَهُ
يُحَاوِلُونَ أَنْ يُخَفِّفُوا عَنْهُ، اسْتَجَابَ لَهُمْ
وَكَفَّفَ دَمْعَهُ، ثُمَّ قَالَ: خَلَقْنَا اللَّهَ لِعِبَادَتِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ عَدُوٌّ
نَفْسِهِ؛ إِذَا يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ وَهُوَ عَدُوُّهُ
الَّذِينَ، وَيَبْتَغِدُ عَمَّا خُلِقَ لِأَجْلِهِ، بَلْ
وَلَرُبَّمَا حَارَبَ مَنْ التَّزَمُوا الطَّرِيقَ،
طَرِيقَ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ.

أُمِّي قَدْ عَادَ الْهَاتِفُ مِنْ جَدِيدٍ!

قالتها زينب بخوف.

أَمْنَةٌ وَقَدْ رَبَّتْ عَلَى كَتْفِهَا بَحْنَانٌ: كَيْفَ
وَأَنَا لَمْ أَسْمَعَهُ؟

زينب بخوفٍ شديدٍ: باللهِ لقد ناداني قبلَ
نومي.

آمنة: وماذا قالَ لكِ؟

زينب: يقول لي: زينب، زينب، يظلّ
يُنَادِينِي _ بصوتٍ أقربَ ما يكون إلى
الهمس، حتّى أنام.

آمنة ضاحكة: ربّما نَادَيْتُكِ أنا أو....

زينب مُقاطعة: باللهِ يَأْتِينِي الصوت من
أَسْفَلِ خزانةِ الملابس، فَالْتَحَفَ وَأَنَامَ
على الفور.

آمنة: زينب لا تُعْطِي الهَواجِسَ مساحةً
من عَقْلِكَ، لِأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ فَسَيَذْهَبُ عَقْلُكَ
كُلَّهُ.

زينب بحسرة: حَسَنًا أُمِّي.

ذهبت إلى بيت جدتها راجية، فقَبَلَتْ
جبينها ويُمناها، وقعدت بجوارها.

أخرجت من حقيبتها _ التي صنعتها لها
أمانة من إحدى الجلابيب، دفترًا وريشة
ومحبرة، وأخذت تسطر ما يؤلم قلبها،
وما لم يستوعبه عقلها الفطن.

بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْأَرْبابِ، غافر الذنب شديد
العقاب، وبعد، قد زادَ وعيي، رغم صغر
سنِّي، فصارَ عقلي نَشِطًا وفكري
مُسْتَعْرًا.

منحني المولى _ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَبَّةً لم
أجد مثلاً بأقراني، أهي نعمة أم نقمة؟
اللَّهُ أَعْلَمُ وَأَدْرَى.

قد هيّأني الله لحمل الأمانة، حين جعلني
حفيدة لعبدِه الصالح (زكريا أبي العُمدة)،
رحمات الله تترا على قبره.

وابتلاني حين أخرجني من صُلبِ
(عابدين بن يحيى ابن أبي المكارم)،
ابتلاء لا أعلم مداهُ إلى الآن، يكفي أن
الله قد نبّهني، ورغم ذلك لا أدري ماذا
أفعل؟!!

أشعرُ بالآلمِ يعتصر قلبي، فأشدّ ما يحدثُ
للمرءِ أن يُبتلى فيما يُحبّ!

أتساءل: وهل يكون البلاء إلا فيما نُحبّ؟

إن لم يكن البلاء فيما نُحبّ فليس بلاءً.

هكذا علّمني جدّي الشيخ (زكريا) رحمه
الله وغفر له، كما أخبرني بحديثِ سيّدنا
النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين قال:

"إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، وَإِنَّ عِظَمَ
الْجَزَاءِ مِنْ عِظَمِ الْبَلَاءِ".

لَكِنَّهُ أَبِي يَا رَبِّ، أُحِبُّهُ بِالْفِطْرَةِ، كَانَ
مِثَالًا لِلْخُلُقِ الْحَمِيدِ، وَأَهْلًا لِلْمَرْوَةِ، لَقَدْ
كَانَ خَلِيفَةً عَبْدَكَ زَكْرِيَّا فِي إِمَامَةِ
الْجَامِعِ، كَيْفَ يَحْدُثُ هَذَا؟

كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الْمَرْءُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؟

يَبْقَى السُّؤَالُ الَّذِي يَشْغُلُ تَفْكِيرِي هُوَ، مَا
الَّذِي حَدَّثَ لَهُ فِي بِلَادِ الْغُرْبَةِ؟

لَنْ أَبْرَحَ حَتَّى أَبْلُغَ الْإِجَابَةَ، وَإِنْ كَلَّفْتَنِي
مَا بَقِيَ لِي مِنْ عُمْرٍ.

أَغْلَقْتُ دَفْتَرَهَا وَمَسَحْتُ دَمْعَهَا، ثُمَّ طَلَبْتُ
مَنْ جَدَّتْهَا أَنْ تُحَدِّثَهَا عَنْ أَبِيهَا، عَنْ
طُفُولَتِهِ وَشَبَابِهِ.

اجتمع اللاشيء ببعض أبناءه، ليخطط
كيف ينتقم من زينب، ويُعرقل طريقها
قبل أن تصل إلى الحقيقة؟

— قد تحققت النبوءة، وجاءت زينب
لتفصح أمرنا.

قالها اللاشيء بغضبٍ ارتجّ له المكان.

أحد أبناءه: مُرنا يا مولانا.

اللاشيء: لا دخلَ لكم بها.

أحد أبناءه: مَنْ لها إذا؟

اللاشيء ساخرًا: عابدين.

أحد أبناءه: أسيقتلها بيده؟

اللاشيء: لا؛ كي لا يُفتضح أمره، كما
أنّه لن يفعل، لأنّها أحبُّ ذرّيته إلى قلبه،

بل وأقربهم إليه، حتّى أنّه يُلقبها بأمّ أبيها.

أحد أبناءه: قد فهمت فيما يُفكر مولانا.

الاشيء: فيما؟

أحد أبناءه: سنقتلها نحن ولكن عن طريق عابدين.

الاشيء ضاحكًا: هو ذاك.

الفصل الثالث عشر

ذكرت لها راجية أن أباهما قد أقامَ ببيتِ
خالتهِ (حنّة) بالقاهرة عدّة سنوات،
وحينَ عادَ لم يعرفهُ أحد؛ إذ كانَ كَمَن
وُلدَ بالقاهرة وترعرعَ بها.

قِيلَ أَنَّ (حافظ) زوج خالته قد امتنَّ
السّحرَ _والعياذُ بالله، حتّى أنّه جعلَ من
بيتهِ مقرّاً لإستقبال الزبائن.

كانَ الجيران يخشونه؛ لِعلمهم بعدم
خوفه من الله، بل إنّهُ قد تسبّب بأفعاله
في خرابِ الكثير من البيوت.

كما كانَ سبباً في خرابِ بيته هو.

تساءلت زينب بدهشة: كيفَ يا جدّة؟

راجية بعدما تنهدت: كان ما يفعله
تمهيداً لخراب بيته.

قد فكك الأسر، وخرب البيوت، وتسبب
بعد قضاء الله وقدره، في مقتل
الكثيرين بسحره.

كان ماهراً في عمله الباطل، فذاع صيته
واشتهر بالفك والربط، والقتل والجلب.

لم يكن كزوجته حنة؛ إذ كانت امرأة
طيبة، تخشى الله وتتقيه، لا ترضى عن
عمله، لكن ليس لها من يعولها
وصغارها الثلاث.

صبرت على نصيبها، ربّت أبناءها تربية
حسنة، لكنّها لم تستطع منع وصول
القدر إليهم.

أَقَامَ عِنْدَهَا عَابِدِينَ عِدَّةَ سِنَوَاتٍ؛ إِذْ كَانَ
يُحِبُّهَا وَيَجِدُ بِهَا أُمًّا، لَكِنَّ حَافِظَ لَمْ يَتْرَكْهُ
حَتَّى عَلَّمَهُ الصَّنْعَةَ!

هَكَذَا قَالَ إِخْوَتُهُ حِينَمَا بَدَأَ بِالسَّيْرِ عَلَى
خُطَى حَافِظٍ، الْغَرِيبِ فِي الْأَمْرِ أَنَّهُمْ لَمْ
يَأْخُذُوا بِيَدِهِ بَعِيدًا عَنْ طَرِيقِ الشَّيْطَانِ،
بَلْ جَعَلُوهُ فَخْرًا لَهُمْ، حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ
لَطَرِيقِ جَدِّكَ زَكْرِيَّا، فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَنَأَى بِهِ
بَعِيدًا، وَلَمَّا صَدَقَ صِلَاحُهُ زَوَّجَهُ آمَنَةً.

زَيْنَبُ: وَبَيْتَ حَافِظَ مَاذَا حَدَّثَ فِيهِ؟

رَاجِيَّةُ: قَدْ طَالَهُ الْأَذَى وَالْخَرَابُ، فَقُتِلَ
الصَّغَارُ الثَّلَاثُ بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ،
بِسِحْرِ جَنِّيٍّ، وَأُصِيبَتْ حَنَّةٌ بِشَلَلٍ رُبَاعِيٍّ،
وَمَاتَ حَافِظُ جَاحِظِ الْعَيْنَيْنِ؛ إِثْرَ تَوَقُّفِ
مَفَاجِئِ لِقَابِهِ.

سافرَ عابدين فجاء بخالته، ظَلَّت عندهم
حتى ماتت، وقُبرَت بمدافنهم.

زينب والقلق يظهر على وجهها: إذا
الموضوع أكبر مما خِيلَ لي.

راجية: ماذا تقولين يا ابنتي؟

زينب: لا شيء جدتي، ثُمَّ قَبَلْتُ يُمْنَاهَا
وذهبت.

مرّت الأيام والتحقت زينب بالمدرسة
الإعداديّة، بعد نجاحها في الشهادة
الابتدائيّة، بينما سالم وغانم قد التحقا
بالصف الأول الابتدائي.

طلبت آمنة من عابدين أن يكمل بناء
البيت، ومن ثمّ يقوم بتجهيزه من بلاطٍ
ونقاشيّة، ليكون مناسباً للاستخدام
الآدمي، لكنّه رفض رفضاً قاطعاً، رغم

عِلْمِهِ بِمَا فَعَلَتْهُ الشَّمْسُ بِأَجْهَزَتِهِم
الْهَضْمِيَّةُ!

كَانَ يَقْضِي يَوْمَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِخْوَتِهِ
وَبَيْوتِ أَخَوَاتِهِ، فَيُطْعَمُونَهُ وَيُضَاكِحُونَهُ،
ثُمَّ يَقُومُونَ بِالْوَقِيعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْنَةٍ؛
فِيرْجِعُ إِلَيْهَا غَاضِبًا، وَيَضْرِبُهَا عَلَى أَتْفِهِ
الْأَسْبَابَ، وَأَحْيَانًا يَكُونُ الضَّرْبُ بِلا
سَبَبٍ.

هَكَذَا كَانَتْ أَيَّامُهُ مَعَهُمْ بِبَيْتِهِمُ الْغَرِيبِ؛ قَدْ
سَكَنْتْ إِحْدَى الْعَائِلَاتِ بِجَوَارِهِمْ، فَفَرَحَتْ
أَمْنَةً، لِأَنَّهَا سَتَجِدُ مَنْ يُوْنِسُ وَحَشَتَهُمْ.

قَدْ لَاحَظْتُ زَيْنَبَ تَغْيِيرًا مَلْحُوظًا فِي سُلُوكِ
عَابِدِينَ؛ إِذْ لَا يَنْطِقُ لِسَانُهُ إِلَّا بِالْبَذِيءِ
مِنَ الْكَلَامِ، حَتَّى أَمَامَ صَغَارِهِ، لَا يَحْتَرَمُ

وجودهم، ويتحدّث إلى آمنة بما يدور
بينهما في فراش الزوجيّة.

بل تطوّر الأمر لما هو أقبح؛ حينَ اعتلى
آمنة أمام أعيانهم مُحاولاً مُضاجعتها،
لكنّها قاومتُه حتّى خرجت من تحته.

هي لا تُثير غريزته أمام الصغار، بل إنّ
غريزته مُثارة على الدوام دون سبب.

حاولت التحدّث إليه بشأن شرهه الخاصّ
بالعلاقة الحميميّة، لكنّه لم يُنصت لها،
فكرت كثيرًا عن سبب ما جعله هكذا،
حتّى أوهمها عقلها الصغير أنّهُ شديد
الخصوبة!

تعجبت زينب من سلوك والدها معهم؛ إذ
يتحدّث بالبذاءة مع آمنة وأمامهم، بينما
هو مع النّاس إنسان آخر، يُصلّي

بالصفِ الأوّل، ويزور هذا، ويُخفف عن
ذاك، ويدعو لذلك.

وتساءلت: كيف يكون الشخص الشيء
ونقيضه في آنٍ واحد؟

كيف يُصلي ويفعل ما تنهاه عنه الصلاة؟

كيف يكون اللسان كثير الذكر لله ربّ
العالمين، ومع ذلك يتلفظ بالبذاءة؟

كيف وكيف وكيف؟

وبعد أشهرٍ عدّة قضتها زينب في البحثِ
والتقصّي، توصلت لمعادلة قد تؤدي إلى
الحقيقة الغائبة.

إذا كان رسول الله _صلى الله عليه
وسلم، قد قال: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ
اللهُ عَنْهُ قَالَ: " لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ

عليه وسلم سَبَابًا وَلَا فَحَاشًا وَلَا لَعْنًا
كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ: مَا لَهُ تَرَبُّ
جَبِينُهُ، رواه البخاري.

إذا البذاءة من الشَّيْطَانِ.

وَأَمَّا عَنْ مُحَاوَلَةِ مُضَاجَعَتِهِ لِأَمْنَةٍ
أَمَانًا، فَهَذَا الْفِعْلُ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ
شَّيْطَانٍ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
قَالَ: هَلْ مِنْكُمْ الرَّجُلُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ،
فَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ سِتْرَهُ،
وَاسْتَتَرَ بِسِتْرِ اللَّهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: ثُمَّ يَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا
فَعَلْتُ كَذَا، قَالَ: فَسَكُتُوا.

قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: هَلْ مِنْكُمْ
مَنْ تُحَدِّثُ؟

فَسَكَتَنَ فَجَثَّتْ فَتَاةٌ - قَالَ مُؤَمِّلٌ فِي
حَدِيثِهِ - فَتَاةٌ كَعَابٍ عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا،
وَتَطَاوَلَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ لِيَرَاهَا وَيَسْمَعَ كَلَامَهُ، فَقَالَتْ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ وَإِنَّهُمْ
لَيَتَحَدَّثُنَّهُ، فَقَالَ: هَلْ تَذَرُونَ مَا مَثَلُ ذَلِكَ؟
فَقَالَ: إِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانَةٍ لَقِيَتْ
شَيْطَانًا فِي السِّكَّةِ فَقَضَى مِنْهَا حَاجَتَهُ
وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ.

إِذَا سَلَوَكَ عَابِدِينَ مَا هُوَ إِلَّا سَلَوَكَ
شَيْطَانًا.

كَمَا أَنَّهُ حَاوَلَ مَرَارًا أَنْ يُعْرِقَلَ مَسِيرَتِي
التَّعْلِيمِيَّةَ، لَكِنَّهُ لَمْ يُفْلَحَ.

الفُحش والبذاءة من صفات الشَّياطين،
لكنَّ أبي إنسان مُسلم، كيفَ يكون بخُلُقِ
شَيطان؟

كانتْ زينب كُلمًا وصلت لمعلومةٍ جديدة،
ذهبتْ إلى بيتِ جدَّتِها راجيةً فبكت حِبرًا
على ورق!

ظَلَّتْ هكذا عِدَّةَ أَشْهُرٍ حتَّى راودتها فكرة
غريبة؛ إذ طلبت من جدَّتِها أن تفتحَ لها
مكتبةَ جدِّها الراحل الشيخ (زكريا).

رفضت راجيةً في بداية الأمر، لكنَّها
سُرَّعان ما استجابت لزينب، شريطة أن
يكونَ الأمر سرًّا بينهما، لا يعلم به ثالث.

ظَلَّتْ تُطالعُ أمَّهات الكتب حتَّى شاخَ
عقلُها، ثُمَّ تطرَّقت إلى كُتبِ الفقهاء،
والحديث، والتفسير؛ لِمَا احتوت عليه

من التحذير من السّحر والإشتغال به،
وبيان حُرْمَتِهِ طَبَقًا لتفسير أي الذكر
الحكيم، وما أَقَرَّتْهُ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ
المُطَهَّرَةُ.

فَهَمَّتْ مَا كَانَ يَنْقُصُهَا، لَكِنَّهَا لَمْ تُقَرَّرْ بَعْدَ
مَاذَا تَفْعَلُ؟

وما الذي يجب عليها فعله؟

تَسَلَّلَ الشَّكُّ إِلَى قَلْبِهَا، بِأَنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ
سَحَرَ لِأَبْيَهِهَا بِبِلَادِ الْغُرْبَةِ، لَكِنَّ شَكَّهَا كَانَ
أَهْوَنَ كَثِيرًا مِنَ الْحَقِيقَةِ.

تَوَقَّفَ الرَّاوي وَالِدُهَا يَتَسَاوَقُ مِنْ عَيْنَيْهِ،
اِقْتَرَبَ مِنْهُ الصَّبِيَّةُ، رَبَّتُوا عَلَى كَتْفِهِ
بِحَنَانٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَسَحَ دُمْعَهُ.

تتهدّ ثمّ تابع: مرّت الأيام وتغيّرت معالم
جسد زينب، وازدانت ملامحها،
ووضحت ملاحظتها للقاصي والداني.

زادها الله جمالاً فوق جمالها، بالإضافة
للوضاءة والحسن.

تمهيداً لدخولها مرحلة جديدة من
مراحلها العمرية، لكنّها أشدّ المراحل
بأساً وأصعبها انقضاءً!

الفصل الرابع عشر

بعد بلوغ زينب عامها الرابع عشر بعدة
أيام، زارتها ضيفة جديدة على حياتها،
ضيفة تزور بنات حواء شهرياً وإلى أن
تُغادر بلا عودة.

نامت زينب بعدما ذكّرت دروسها، لكنّها
لم تهناً بنومها؛ فقد أيقظها العطش،
راحلت لتشرب، فشعرت بشيءٍ يتسلّل
بين فخذيها، مدّت يدها فلامست بللاً،
تبَيَّنَتْهُ على ضوءِ السراج فوجدته دماً.

أسرعت إلى أمّها والخوف يملأ قلبها،
همست لها فاستيقظت، وخرجت معها
إلى الغرفة الأخرى.

زَيْنَبُ بِخَوْفٍ وَقَلَقٍ: قَدْ حَاضَتْ زَيْنَبُ يَا
أُمَّهَا.

آمنةٌ بدهشةٍ: متى؟

زَيْنَبُ وَالدمعُ يَتَسَاقَطُ مِنْ عَيْنَيْهَا: الْآنَ.

آمنةٌ وَقَدْ احْتَضَنْتَهَا: لَا تَخَافِي بَضْعَةَ
قَلْبِي وَرُوحِي، هَكَذَا هِيَ طَبِيعَةُ بَنَاتِ
حَوَاءَ.

ثُمَّ ذَهَبَتْ وَعَادَتْ بَعْدَ دَقَائِقٍ وَمَعَهَا
حَقِيبَةٌ.

أَعْطَتْهَا لَزَيْنَبٍ وَقَالَتْ: هَذِهِ حَقِيبَتُكِ
الْخَاصَّةُ بِفَتْرَةِ حَيْضِكَ، فَمَا بِهَا مِنْ أَلْبَسَةٍ
لَا تَرْتَدِيهِ إِلَّا لِهَذَا الْغَرَضِ، قَدْ فَصَّلْتُهَا لَكَ
جَدَّتْكِ رَاجِيَةً عِنْدَ الْعَمَّةِ مَارِيَا.

زَيْنَبُ: حَسَنًا أُمِّي.

آمنة: لا تخافي ولا تقلقي، فقد سبق
ومهدتُ لك ما يحدثُ الآن، مُبارك عليكِ
بلوغكِ المَحِيضِ آنستي العزيرة.

خجلت زينب فوضعت يدها على وجهها
دون أن تردّ.

آمنة: هيا إلى دورة المياه، وأنا هنا
أنتظركِ.

وبعد دقائق، كانت زينب قد فعلت ما
أوصتها به آمنة.

آمنة ببسمةٍ مطمئنة: هل تشعرين بألم؟

زينب بصوتٍ حيي: لا أُمّي.

آمنة وقد قطبت حاجباها: كيف؟

زينب: لا أشعرُ بأيِّ ألمٍ أُمّي.

آمنة مُبتسمة: حمداً لله، سيكون حيضك سهلاً بُنيّتي.

زينب تنظر للأرض ولا تردّ.

آمنة: قد حدّثتك كثيراً عن ما أنت فيه قبل أن تُقبلي عليه، لذا لن أكرّر عليك، لكن أريد شيئاً منك.

زينب: تفضّلي أمّي.

آمنة: تذهبين في الصباح إلى جدّتك راجية، وتُبشّريها بالخبر.

زينب: حسناً أمّي، سأفعل إن شاء الله.

آمنة: ستتصحبك فأنصت لها جيّداً.

زينب: حسناً أمّي.

آمنة بعدما قبلتها بين عينيها: والآن هيّا لتنامي، تُصبحين على خير.

زينب بعدما قبّلت يُمنّاها: وأنتِ كذلكِ
أمّي.

وفي الصباح ذهبت زينب إلى بيت جدّتها
راجية.

طرقت الباب، فتحت لها راجية، رحّبت
بها وقبلتها بينَ عينيها، ثمّ سألتها: هل
أمنة بخير؟

أجابتها زينب: أجل، جئتُ لأتناولَ معكِ
الإفطار جدّة.

راجية بفرح: حلّتِ أهلاً يا فلذة كبدي،
سأصنعُ لكِ إفطاراً شهياً.

أشعلت راجية موقد الكيروسين،
ووضعت الماءَ بإناءٍ متوسط الحجم،
ورفعتهُ على النار.

اقتربت منها زينب، وهمست لها: أريد
إخبارك بأمر هام جدّة.

قامت الجدّة وأخذتها، وقعدتا بالصالة.

زينب على استحياء: قد أعطتني أمّي
الحقيبة التي صنعتها لأجلي بمعاونة
العمة ماريّا.

فمّرت راجية للحظات ثمّ قالت: هل
زارتك الضيفة؟

زينب وقد احمّرت وجنتاها: أجل.

راجية بعينين لامعتين: اللهمّ بارك
فلذتي، اللهمّ بارك حفيدتي، اللهمّ بارك
زينبي.

زينب ببسمة صافية: وأنت كذلك جدّة.

راجية بعدما زغردت: قد صرتِ شابةً
مليحة زينب.

زينب تبتسم ولا تردّ.

راجية: بُنيتي، أعلمُ أنّكِ تقيّةٌ وذكيّةٌ،
كيف لا؟

وقد رُبّيتِ في كنفِ زكريا أبي العُمدة،
لكنّ هذا لا يمنعني أنْ أنصحكِ.

زينب: انصحيني ما شئتِ جدّة.

راجية بعدما ربتت على كتفها بحنانٍ
بالغ: أوصيكِ بتقوى الله.

زينب: اللهمّ اجعلني تقيّةً نقيّةً واحفظني
بما تحفظ به عبادك الصالحين.

راجية: اللهم آمين، والآن سأصنعُ لكِ
أشهى إفطار على الإطلاق، ثمَّ صعدت
إلى سطح البيت وبيدها سكين حادة.

عابدين، أريدُكَ أَنْ تُنصتَ لي جيّدًا، فلديّ
بشارة لك.

قالتها آمنة وهي تُعطيهِ كوب الشاي.

عابدين بلهفة: أنصتُ لكِ آمنة، ماذا
هناك؟

آمنة بهمسٍ: قد حاضت الصغيرة يا
أباها.

عابدين: أحقًّا؟

آمنة: أجل.

عابدين: منذ متى؟

آمنة: بعد مُنتصف الليل.

عابدين: وأين هي؟

آمنة: ذهبت إلى بيت جدتها.

عابدين بعينين لامعتين: إنها حقاً
لبشارة.

قامت راجية بذبح بطة كبيرة الحجم
كثيرة اللحم، ثم هبطت من أعلى السلم.

أسرعت إلى موقد الكيوسين فزادت من
سرعته، ثم وضعت الماء المغلي بإناءٍ
أكبر، ونظفت البطة، ثم قطعتها إلى
أربع، ووضعتها بالماء المغلي على
الموقد الحطبي؛ ليسهل نضجها.

فتحت غرفة الخزين الخاصة بالبيت،
فأخرجت منها رطلاً من السمن البلدي،
وبعض الدقيق، وبرطماناً من العسل
الأسود الطازج.

عجنت الدقيق ببعض السمن البلدي، ثُمَّ
انتظرته حتّى اختمر، وأعادت عجنه من
جديد، ثُمَّ وضعتُه بصينية كبيرة،
وأدخلته الفرن البلدي، الذي أشعلته
مُسبِقًا.

وبعد نصف ساعة كانت زينب تتناول
أشهى إفطار من يد جدّتها راجية.

زينب: سلمت لي جدّتي.

راجية بعدما قبلتها: حُفَظت لي زينبي.

استأذنت زينب جدّتها في دخول مكتبة
جدّها؛ ريثما تُعدّ لها الغداء.

وافقت راجية، وصنعت لها كوبًا من
القهوة، وقدمته بجانب بعض الكعك.

أخرجت قلمها ودفترها من حقيبتها،
التي تحفظها بالدرج الخاص بمكتب
جدّها الراحل، وأخذت تسطر ما حَدَّثَ لها
من بلوغها المَحِيض، ثُمَّ أعادت الدفتر
والقلم للحقيبة، وأعادتها إلى الدرج،
لتستطيع القراءة بتركيز بحضرة فنجان
القهوة المُرّة الذي تحتسيه.

خرجَ عابدين إلى العراء بالقرب من
مقابر البلدة، دخلَ أحد الكهوف، ليُلَبّي
نداء اللاشيء.

__عابدين.

عابدين بصوتٍ صاغر: لبيك مولاي.

__قد بلغت الصغيرة المَحِيض، وهذا هو
الموعد.

عابدين: قد حَدَّثَ مولاي.

إن لم تقم بتنفيذ المهمة فترة حيضها
فلن تستطيع تنفيذها فيما بعد.

عابدين مطأطأ الرأس: لماذا؟

لأنّها أتقى أبناء أمانة وأقواهم؛
تُحاوِطها هالة نورانيّة هائلة، كما تمتلك
طاقة روحانيّة عظيمة، بإمكانها أن
تُحرق من يقترب منها.

عابدين مُندهشاً: أوكلّ هذا يكمن
بالصغيرة زينب؟

وأكثر، أنت لا تعلم شيئاً.

عابدين: مُرني، خادمك المُطيع مولاي.

آتني بأثرٍ لها، وسنقوم نحنُ بسّحرها.

عابدين: أيّ أثرٍ مولاي؟

أُرِيدُ بَعْضًا مِنْ دِمَهِهَا، وَدِمَاءَ الْحَيْضِ
تَكْفِي!

الفصل الخامس عشر

تَبَّهت زَيْنَبُ أَثَاءَ مُطَالَعَتِهَا لِأَحَدِ
الْكَتُبِ، أَنَّ بَعْضَ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ تَعْتَمِدُ
فِي جَوْهَرِهَا عَلَى السَّحَرِ وَالْعَمَلِ بِهِ.

أَيُّ أَنَّهُمْ يُحَلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَيْهِ.

عَرَفْتُ وَجْهَهَا أَخِيرًا، وَهِيَ الْبَحْثُ عَنْ
الْمُتَّصِفَةِ، وَأَفْعَالِهِمْ وَأَسَالِيْبِ حَيَاتِهِمْ.

نَادَتْهَا رَاجِيَةً لَتَنَاولَ الْغَدَاءَ قَبْلَ أَذَانِ
الْعَصْرِ، أَعَادَتْ الْكِتَابَ لِمَكَانِهِ، وَخَرَجَتْ
وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ.

بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ الرَّحْمَنُ!

قَالَتْهَا زَيْنَبُ وَهِيَ تَقْعُدُ بِجَوَارِ جَدَّتِهَا.

راجية مُبتسمة: لا بُدَّ وأنَّ تتغذي جيّدًا،
خصوصًا خلال هذه الفترة يا عروس
البئر.

زينب وقد قطبت حاجباها: عروس
البئر؟

راجية ضاحكة: سأحكي لك قصتها،
ولكن ليس الآن.

زينب مُبتسمة: حسنًا، بِسْمِ اللَّهِ،
وشرعت في تناول الطعام، فبدأت بحساء
البط، وبعد أن تذوقته: جدّتي، إنّه لذيذ
للغاية.

راجية: بالهناء والشفاء حبيبتي، هيّا، لا
أريدك أن تُبقي شيئًا من هذه المائدة.

زينب بمرح: سأفعلُ بعونِ الله، ما دامت
راجية هي الطاهية.

عادَ عابدين إلى البيت، بحثَ عن زينب
فلم يجدها، سأل آمنة، فأخبرتهُ بأنَّها
ستقضي اليوم مع جدّتها.

حسنًا، حينَ تعود أخبريها أنّني أريدها
بخصوصِ أمرِ هام.

قالها عابدين وهو يستلقي على سريره.

آمنة: حسنًا، ولكن أين كنت؟

عابدين: جلستُ بالجامع بعض الوقت،
ثمَّ عدت.

آمنة: حسنًا.

ها أنا قد تناولت الطعام، هل لك أن
تحكي لي قصّة (عروس البئر) جدّتي؟

قالتها زينب وهي تجلس على الأريكة.

راجية: حسنًا.

كان يا ما كان.. في قديم الزمان، وقبل
اختراع ماكينة الحياكة، كانت هناك
عروس ريفيّة بسيطة، تسكن عائلتها
الأرض التي يزرعونها.

بلغت الجميلة المَحِيض، فجاءها الرجال
خاطبون؛ لوضاعتها وملاحقتها.

لم تَكُن ترغب في الزواج؛ لشدّة حياءها،
وخوفها الكثيف من الرجال، إذ كانت
تظنّهم مخلوقات من كوكب آخر!

وبعد إقناع أخذ وقتًا طويلاً، وافقت
العروس على الزواج من أحد شباب
البلدة، شابّ تقى، اشتهر بالورع، أحبّها
مُنذ خطبها، ووافق على شروطها
وشروط أهلها.

مرّت الأيام وحنّ الزفاف، لكنّها خائفة،
خجلى، لا تُحبُّ ما يفعلونه بالعروس،
من كشفٍ للسوءة، بحجة التزيّن
وغيرها.

قررت أن تتمرد على نظامهم المُخالف
لما جاء به الشرع الحنيف، فذهبت إلى
مكانٍ بعيد عن البلدة، استظلت بظلّ
شجرة كثيرة الأفرع.

خلعت عباءتها، وقامت بتنظيف جسدها
بنفسها، ثمّ سمعت صوتًا يُناديها، خشيت
أن يراها أحد فقفزت في البئر المجاورة
للشجرة!

لحسن حظّها أنّ البئر كانت عامرة
بالماء، لكنّها لم تُغرق العروس، بل

صنعت لها ثوبًا فضفاضًا ساترًا من
ماءها، وأخرجتها.

عادت للشجرة مرّة أخرى، فغزلت لها
الشجرة تاجًا أخضرًا محفور عليها
(عروس البئر)، صريعة الحياء.

تعجبت العروس، كيف تكون صريعة
وهي لا زالت على قيد الحياة؟!!

عادت إلى البلدة، وما أن رأوها بهذا
الشكل المَلَكِي؛ حتّى ظنّوها إحدى ملكات
الجان، فحملوها وأسرعوا بها إلى البئر
فرموها.

لكنّ البئر لم تُخرجها هذه المرّة؛ بل
احتضنتها فتاهت في أحضانها، وفاضت
روحها.

زينب بعدما مسحت دمعها: قصّتك حزينّة
راجية.

راجية ضاحكة: يا ملكة الإحساس، هذه
القصة من وحي الخيال، لكنّ ما عجبني
بها، هو وجه الشبه بينك وبين عروس
البر.

زينب: كيف؟

راجية: من حيثُ الجمال والحياء، وكذا
التفكير.

زينب مُبتسمة: حسنًا، والآن سأذهب إلى

البيت، أتريدين شيئًا جدّتي؟

راجية: سلامتك أريد وقبلتها.

عادت زينب قبل الغروب، فوجدتهم
يتناولون العشاء، ألقت عليهم السلام،
ودخلت بدلت ثوبها بثوب البيت.

ثم أخذت السراج الموضوع جانبًا،
وذهبت لدورة المياه ومعها الحقيبة التي
أعطتها لها آمنة.

وبعد دقائق خرجت، ونادت آمنة،
فسألتها أين تضع ما خلعتهُ من لباس،
أخذته منها آمنة ووضعتهُ بطست، ثم
وضعتهُ جانبًا.

عابدين: زينب، تعالي يا أمّ أبيها.

زينب: قد جئتُك أبي.

عابدين: قد أخبرتني أمّك بأمرِ بلوغك.

احمرت وجنتاها ولم تردّ.

عابدين: ما وددتُ قوله لك هو أن
تُحافظي على نفسك من أيِّ سوء.

زينب بنبرةٍ حادة: مَنْ يحفظ الله يحفظه
الله أبي، أم أنك قد نسيت هذا الحديث هو
الآخر؟

عابدين مُتلعثمًا: بل أحفظه يا ابنتي،
وهذا ما وددتُ قوله لك، ليحفظك الإله
وانصرف.

أخذت زينب تُفكّر في أمر أبيها،
وخصوصًا بعدما تطرّقت للبحث عن
هويّة المتصوّفة الأحداث.

انتصفَ الليل، نامت آمنة بعدما قامت
الليل بمعيّة سالم وغانم، بينما زينب
كانت تذكر الله بعيدًا عن مُصلاهم.

أَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ أَثَرِ لَزِينِبَ فَلَمْ يَجِدْ
بِالْغُرْفَةِ، بَحَثَ فِي الدَّاحِلِ فَوَجَدَ طَسْتًا بِهِ
مَا بَدَّلَتْهُ مِنْ مَلَابِسٍ، لَمَعَتْ عَيْنَاهُ بِبَرِيقِ
النَّارِ، أَخَذَ الْأَثَرَ الْمُرَادَ وَخَبَّأَهُ بِمَلَابِسِهِ
وَانْطَلَقَ بِهِ نَحْوَ الْكَهْفِ.

الفصل السادس عشر

وضع ما جاء به من أثر زينب أمام
الاشيء بوسط الكهف.

اقترب الاشيء منه، أمسك به واشتمه
ثم قال: دماء طاهرة لم تتل منها نجاسة
الحيض.

أخذ الأثر ووضعه بطست، ونظر لعابدين
قائلًا: سترى بأمر عينك كيف يكون
السحر؟

تلا تعاويذه فحضر السحرة، وقد تمثلوا
على هيئة شيوخ اشتعلت رؤوسهم
شيبًا!

خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، أَمْرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِعَمَلِ
السَّحَرِ لِصَاحِبَةِ الْأَثَرِ، مُشِيرًا إِلَى
الطَّسْتِ.

تَسَاءَلَ أَحَدُهُمْ: أَيُّ سَحَرٍ يُرِيدُ مَوْلَايَ؟

الْأَشْيَاءُ بِزَهْوٍ: سَنَبْدَأُ بِالسُّفْلِيِّ، فَمِثْلُ
زَيْنَبَ لَنْ نَسْتَطِيعَ الْوُلُوجَ إِلَى جَسَدِهَا
بِالسَّحَرِ الْعَادِيِّ.

اقْتَرَبُوا مِنَ الطَّسْتِ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأُوا،
أَمْرَهُمْ بِالتَّوَقُّفِ، ثُمَّ قَالَ: سَأَبْدَأُ أَنَا
وَسَتُكْمَلُونَ بَعْدِي، طَبَّقُوا عَلَيْهَا كُلَّ مَا
تَعَلَّمْتُمُوهُ مِنْ سَحَرٍ.

جَلَسَ وَأَمَامَهُ الْأَثَرُ، وَرِيشَةٌ، وَأَوْرَاقٌ.

أَمْسَكَ الرِّيشَةَ فَوَضَعَهَا فِي الْأَثَرِ،
وَأَخْرَجَهَا مُلْطَخَةً بِالدِّمَاءِ، فَأَخَذَ يَكْتُبُ

على الورقة كلمات مُعَيَّنة برموزٍ
مخصوصة.

أنهى سحره، وعقدَ الخيوط، فنفتَ فيها
بتعاويذه، ثُمَّ قَالَ بِفَخْرٍ: بهذا السّحر
سأكسرُ الهالةَ الإيمانيّةَ الخاصّةَ بزينب،
وسأضعف طاقتها الروحانيّة؛ لأتمكّنَ من
السيطرة عليها؛ كي أضمنَ ولاءَ أبيها.

نظرَ إليه عابدين بعينين دامعتين،
والحسرة تأكل قلبه، ولسان حاله يقول:
يا ليتني متُ قبلَ هذا وكُنْتُ نسيًّا منسيًّا!

توقفَ الراوي ليُكفّفَ دمه، سألَهُ أحدُ
الصبيّة: هل كانَ عابدين صالحًا يا
مولانا؟

نَظَرَ إِلَيْهِ الرَّاوِي بَعَيْنَيْنِ دَامِعَتَيْنِ وَقَالَ:
وَهَلْ يُحَارِبُ الشَّيْطَانُ غَيْرَ الصَّالِحِينَ يَا
وَلَدِي؟

قَدْ سَقَطَ عَابِدِينَ فِي بئرِ الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يَجِدْ
مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ، خَشِيَ عَلَى ذَوِيهِ مِنْ وَقْعِ
مَا أَصَابَهُ، فَفَضَّلَ الصَّمْتَ حَتَّى أَخْرَجَ اللَّهُ
مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ.

فَرَحَ عَابِدِينَ كَثِيرًا جَدًّا بِمَوْلِدِ زَيْنَبَ،
وَاخْتَارَ لَهَا هَذَا الْاسْمَ؛ لِحُبِّهِ الشَّدِيدِ
لِلسَيِّدَةِ زَيْنَبَ وَسَائِرِ آلِ الْبَيْتِ.

لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهَا سَتَكُونُ بِلَاءَهُ، وَسَيَكُونُ
هُوَ اخْتِبَارًا لَهَا فِي قُوَّةِ إِيْمَانِهَا.

عَابِدِينَ مَا هُوَ إِلَّا ضَحِيَّةُ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ،
قَدْ اسْتَغْلَّ أَحَدَ الْمُنتَسِبِينَ إِلَى الطُّرُقِ
الصُّوْفِيَّةِ قَلْبَهُ الطَّيِّبَ، وَحُبَّهِ الشَّدِيدَ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَذَا رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كَمَا اسْتَغْلَّ بِيَاضِ قَلْبِهِ، وَأَوْهَمَهُ أَنَّ
عِبَادَتَهُ بَاطِلَةٌ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ الصَّحِيحَةَ
تَكْمُنُ فِي إِتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِمْ، بَلْ وَأَقْنَعَهُ
زُورًا وَبُهْتَانًا أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ
لَيْسُوا بِشَرًّا عَادِّيْنَ؛ بَلْ هُمْ مَلَائِكَةُ
بَدْرَجَةِ بَشَرٍ!

دَخَلُوا لَهُ مِنْ بَابِ حُبِّ اللَّهِ، وَلَوْلَا أُمِّيَّتُهُ
مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

خَدَعُوهُ فَقَالُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَحْضُرُ فِيمَا يُسَمُّونَهُ
بِالْحَضْرَةِ، لَيْسَ هَذَا فَحْسَبُ؛ بَلْ وَكَذَلِكَ
الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

أَقْنَعُوهُ أَنَّ الْأَقْطَابَ الْأَرْبَعَةَ (أحمد
الرفاعي، عبد القادر الجيلاني، أحمد
البدوي، وأخيرًا إبراهيم الدسوقي)، هُم
الغوث بل والهداية لمريديهم، ولولاهم
لُدَّكَتِ الْأَرْضُ دَكًّا!

عَلِّمُوهُ أَنَّ الْحُضْرَةَ مَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلَّهِ،
وتلاوة الأوراد الخاصَّة بهم، لِإِسْتِحْضَارِ
أَرْوَاحِ الْأَقْطَابِ الْأَرْبَعَةِ، وَمَنْ ثَمَّ طَلَبَ
الْمَدَدَ مِنْهُمْ.

زَرَعُوا بِمُعْتَقَدِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَمُتْ، وَكَذَا آلَ الْبَيْتِ،
وَالْأَقْطَابِ الْأَرْبَعَةِ!!

بَلْ هُمْ أَحْيَاءٌ فِي عَالَمِ الْبَرَزَخِ، لِذَا
يَحْضُرُونَ لَهُمْ إِذَا مَا طَلَبُوا مَدَدَهُمْ، وَمَنْ
ثَمَّ يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ.

استحوذَ عليه مُبتدعة الصوفيّة، مَنْ
يُكرّسونَ حياتهم لخدمةِ الأضرحة، لكنّهم
في حقيقةِ الأمر ما هم إلّا مافيا لتلك
الأضرحة، مثّلتهم كمثّل كهنّة بني
إسرائيل في الجشع والطمع، واستغلال
النّاس والمُتاجرة بالدين.

حوّلوه من شخصٍ طبيعي إلى مريض
بارانويا، يرى نفسه على حقّ ومَنْ لم
يتبع طريقه على باطل، بل هو من أهلِ
النّار كما أوهموه.

يتعالى في مُعاملاته؛ إذ هو المُختار من
بينِ الخلائق، والمُفضّل على غيره،
والعالم بما لم يعلمه غيره، كما
يزعمون.

يبتدعون في السُّنَّةِ ما ليسَ فيها،
ويؤلفون الأحاديثَ الباطلةَ ثُمَّ ينسبونها
زورًا إلى أشرفِ الخلقِ وحبیبِ الحقِّ،
رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يسقطبونَ فئدةَ الأمّيين؛ لبسًا
معلوماتهم الدينيّة، ولربّما لعدم معرفتهم
بها من الأساس.

سلبوا لبَّ عابدين، ومن ثمَّ قاموا بسرقةِ
دينه، وفيما بعد جعلوه مسخًا خادماً
للشَّيطان.

علّموه السَّحر؛ مُعلِّين أنَّه أحدُ أنواعِ
العلوم، والمُسلم مُطالب بطلبِ العلم!

مهدوا له الطريق، أن جعلوه يستخدم
السَّحر في مُعالجةِ الأمراضِ
المُستعصية، ثُمَّ فكَّ سحر الربط بسحرِ

آخر، وهكذا حتّى جعلوه زانيّا؛ إذ تأتيه
امراة العقيم فيُضاجعها بدعوى طرد
الجنّي من رحمها المسكون.

تمرّ الأيام وتُصبح امراة العقيم حُبلى،
فتعود إليه لتحمده وتشكره، وهي تعلم
وهو يعلم أنّه ما فعل شيئاً خارقاً، لكنّه
زنى بها وقوفاً على رغبتها.

أخبروه أنّه لا يوجد فرجٌ مُحَرَّم؛ إذ كلّ
الفروج مسموحٌ بوطنها ما لم تكن
صاحبة الفرج قد خرجت من صُلْبِه، طبقاً
لأقاويل ساداتهم وبعض مشايخ طُرُقهم،
بل ذهبَ بهم الجحود لإباحة الزنا بحليلة
الجار، ما دامَ الشيخ أرادها فهي ملكٌ له
حتّى يقضي وطره.

قد سلبوا ألب عابدين وأسكنوا محلّه
قاذوراتهم الفكرية والسلوكية على حدّ
سواء.

خرجت زينب من صلبه لتأخذ بيده، لكن
هل ياترى سينصاع لأمرها، أم أنّه
سيُضحى بها كي لا يفتضح أمره؟!!

الفصل السابع عشر

قام سحرة الجنّ بتتفيذِ ما أمرهم به
اللاشيء، بينما عابدين يقف حزينًا
مُتَحَسِّرًا، لا يقوى حتى على الاعتراض.

نظرَ إليه اللاشيء وقال: ما نفعه الآن
هو نتاجِ فعلك السابق، أتذكر حينَ
عصيتَ أوامرنا في بادئ الأمر، بل
وتسببتَ في مقتلِ عشرة من أشرس
قبائل بني جنسي.

لم تكن بهذه الشجاعة التي أنت بها
الآن؛ إذ كنت تخشى غضبه عليك، بل
وتطلب منه المغفرة، إن كان الأمرُ
كذلك، فلم تتركك دون أن يأخذ بيدك؟

لماذا لم يُعاقبك إلى الآن إن كان هو
شديد العقاب؟

سقطت دمة رَغَمًا عن عابدين، تَهْدَ
وقال: لَكُنِّي قد فعلت ما طلبته مني
مولاي، ولم أتأخر على تنفيذ أوامر
مولانا المُعَظَم، أمّا تلك الفتاة فلا دخل
لها بما بيننا، هي صغيرة وهي ابنتي.

اقتربَ اللاشيء منه، وإن كان قد وارى
سوءته بهيئة بشري، لكنّه لم يستطع أن
يؤاري رائحته المُنْتنة، ويكأنّه جيفة!

اللاشيء: ابنُكَ تلك، هي أحبُّ أبناءكَ
إليك، وأقربهم إلى قلبك، لذا ستكون هي
محلّ عقابك، أنت تُخطئ وهي تحملُ
وزرك.

عابدين مُتوسلاً: خادمك المُطيع مولاي،
هي لا تفقه شيئاً.

اللاشيء بغضب: بل أنت هو من لا يفقه
شيء، لقد أحرقت بقرآن ربّها عشرات
الخُدام، وما كان ذلك ليحدث لو لم تكن
فقيهة ورعة.

زينب تُمثل لنا خطراً كبيراً، وإن نحن
تركناها لتكبر ستقضي على مُعظمتنا إن
لم تقض علينا جميعاً.

تلك الفتاة الصغيرة قد أودعها الله قلباً
شفافاً، هو بصيرتها التي ترى بها ما لا
يراه غيرها، لذا سيكون جُلّ تركيزنا
على قلبها.

عابدين بصوتٍ صاغر: كما تُريد مولاي.

اللاشيء: خُذْ هَذِهِ الْأَسْحَارَ، سَتَضَعُ
بَعْضَهَا فِي الطَّعَامِ، وَبَعْضُ الْآخِرِ فِي
الشَّرَابِ، وَتَحْتَ عَقَبِ الْبَابِ.

وَسَكَتَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا هَذَا (السُّفْلَى) فَسَتَقُومُ
بِدْفْنِهِ بِفَنَاءِ الْبَيْتِ؛ لِيَكُونَ سَجْنَهَا الْأَبَدِي،
الَّذِي لَنْ يَسْتَطِيعَ كَائِنًا مَن كَانَ إِخْرَاجَهَا
مِنْهُ.

أَخَذَ عَابِدِينَ الْأَسْحَارَ وَعَادَ إِلَى الْبَيْتِ قَبْلَ
الْفَجْرِ، خَبَّاهُنَّ بِخَزَانَةِ الْمَلَابِسِ، ثُمَّ خَلَدَ
إِلَى النَّوْمِ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، طَلَبَ مِنْ أَمْنَةٍ
أَنْ تَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا؛ لِتَرْوِيحَ عَنِ
النَّفْسِ، سَأَلَتْهُ إِنْ كَانَ سَيَذْهَبُ مَعَهُمْ أَمْ
لَا، فَأَجَابَهَا بِأَنَّهُ سَيَغْتَسِلُ ثُمَّ يَلْحَقُ بِهِمْ.

ذهبت آمنة وأولادها، وما أن غادروا
حتى قام بتنفيذ ما أمره به اللاشيء.

تسللت زينب إلى المكتبة، فأخذت تكمّل
قراءة ما انتهت إليه في المرّة السابقة،
حتى سمعت صوت أبيها فوضعت الكتاب
مكانه، وخرجت بسرعة قبل أن يلحظ
غيابها.

أعدّت لهم راجية إفطاراً شهياً، يتكوّن
من الجبن الصعيدي، البيض المقلي
بالسمن البلدي، الفول المدمس بالزُبدة،
وصحناً من المورتة (بقايا السمن
البلدي، الناتجة عن عملية تسريح
الزُبدة)، بالإضافة للخبز الشّمسّي، الذي
تتميّز به المائدة الصعيديّة.

تتاولوا إفطارهم، ثُمَّ جلسوا بسطح
البيت، ليتَّسموا عبير الزهور، التي
زرعتها راجية.

زينب، ساعديني يا ابنتي.

قالتها راجية، وهي تحمل صينية كبيرة
فوق رأسها.

زينب بعدما حملتها عنها: سلمت يداك
جدتي، ثُمَّ وضعتها أمامهم، وقدمت لهم
الشاي والفايش.

أخذوا يتذكرون ما مضى من أيام
ويترحمون على الشيخ زكريا.

راجية: تزوجني وأنا ابنة التسع سنوات،
فكبرتُ في داره، ربّاني وعلمني
وهذبني.

لَمْ تَكُنْ عَلاَقَتِي بِهِ مُجَرَّدَ عَلاَقَةٍ زَوْجٍ
بِزَوْجَتِهِ، بَلْ كَانَتْ أَعْمَقُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ.

كَانَ لِي نِعَمَ الزَّوْجِ، وَالصَّاحِبِ، وَالسَّنْدِ.

عَقِبْتُ أَمْنَةً بِقَوْلِهَا: صَدَقْتَ أُمِّي، كَانَ
رَحِمَهُ اللَّهُ، نِعَمَ الْأَبِّ وَالصَّدِيقِ، لَمْ
يَجْرَحْنِي بِحَرْفٍ، وَلَمْ يَضْرِبْنِي بِعَصَا وَلَا
كَفٍّ، أَكْرَمَنِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالْفَرْدَوْسِ
الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ.

زَيْنَبُ: اللَّهُمَّ آمِينَ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى أَبِيهَا
وَقَالَتْ: وَأَنْتَ أَبِي؟

نَظَرَ إِلَيْهَا عَابِدِينَ بَعِينِينَ دَامِعَتَيْنِ، وَقَالَ:
أَنَا، أَنَا لَا شَيْءَ بِدُونِهِ، أَعِيشُ كَالْمَسْخِ
فِي غِيَابِهِ، قُصِمَ

ظَهْرِي لِفِرَاقِهِ، لَكِنَّهَا الْحَيَاةَ.

زينب بعينين دامعتين: ألم يأخذ عليك
عهدًا بالآ تَعُودَ إلى ذلك الطريق مرّةً
أُخرى؟

تعلمَ عابدين قبلَ أنْ يُجيب: بلى.

زينب: إذا ماذا؟

عابدين بغضب: دعكِ من ذلك يا ابنتي.

زينب: لم؟

عابدين وقد تساقطَ دمعُه: لخوفي عليك
لا أكثر.

زينب: وفيمَ الخوف يا أبتى؟

عابدين: سأفتقدكِ وحديثكِ زينب.

آمنة بدهشة: أو مُسافرٌ أنت؟

عابدين بحسرة: أجل.

آمنة: لمَ السفر؟

عابدين: يكفي ما أضعته من سنواتٍ بلا
عمل.

راجية: دعيه وشأنه آمنة، يسر الله لك
الأمر، ومتى ستُسافر بمشيئة الله؟

عابدين: بعدَ عشرة أيام.

زينب مذهولة من وقع المفاجأة، هي
تعلم أنّ أباهما في خطرٍ لكنّها لا تعرف
ماهيته، ورغم ذلك تُكثف جهودها في
البحثِ والمُطالعة؛ كي تجد خيطاً يُوصلها
بالحقيقة الغائبة.

مرّت المُدّة المُحدّدة، وهما هو عابدين
يودّع أسرته، ربّما يكون الوداع الأخير!

الفصل الثامن عشر

عادَ عابدين إلى حيثُ يعمل، مالِغًا
لمزرعةٍ كبيرةٍ بإحدى الدول العربية
الشقيقة، ورغم ما يمتلكه هناك من
أرصدةٍ ضخمةٍ بإحدى البنوك الأجنبية،
إلا أنه لم يرأف بحال آمنة وأولاده؛ إذ
تركهم بيتٍ لا يصلح للحياة الآدمية.

هنا تساءل أحد الصبية: كيف لا يصلح
للحياة الآدمية يا مولانا؟

تبسم له الراوي وقال: لو أنك صبرت،
كنت سأسرد لكم لولا مقاطعتك.

الصبية بصوتٍ واحدٍ: أكمل يا مولانا.

احتسى الراوي بعض حسواتٍ من ماء،
ثم تنهد قبل معاودته السرد.

كثفت زينب مطالعتها للكتب، وبحثها
للوصول إلى الحقيقة الغائبة، حتى ذلك
اليوم، اليوم الذي ضعفت فيه قوتها،
فتغير تفكيرها، بل وحياتها كلها.

إنه يوم السادس عشر من أبريل لعام
ألف وتسعمائة وأربعة وستون؛ اليوم
الذي كشف لها الحقيقة الغائبة، أو قل
هو بداية كشف الحقائق، كما أنه بداية
ابتلاء لم يكن يومًا بحُساب الصغيرة ولا
أي أحد.

بعد أن أنهت زينب مراجعتها؛ استعدادًا
لامتحانات الشهادة الإعدادية، فاجأها
القدر ببلاءٍ لا تقوى الجبال على حمله.

زينب خُذي هذه الحُلوى؛ كي تزيد من
تركيزك فالامتحانات على الأبواب
عزيزتي.

قالتها آمنة.

زينب بعدما أخذتها منها: شُكراً لك أُمِّي.

آمنة مُبتسمة: قد اجتهدت كثيراً طيلة
العام، وفقك الله بُنيّتي.

زينب بعدما قبّلت يُمنّاها: لولاكِ ما
اجتهدت ولا تعلّمت أُمِّي، قد تحمّلت
الكثير لأجلي، يكفي أنّكِ قد وقفت أمام
أعمامي وعمّاتي، حين رفضوا ذهابي
للمدرسة الإعداديّة بالقرية المجاورة،
بعدما هُدم بيت الحاج عبد القادر، محلّ
المدرسة الإعداديّة ببلدتنا.

لا أنسَ أبداً ذهابك بي إلى تلك المدرسة
سيراً على الأقدام كُلِّ صباح، لم تكلِّ أو
تملِّ، زرعتِ بداخلي الأمل، وأشعلتِ
الحماس بقلبي.

آمنة مُبتسمة: جبرني اللهُ فيكِ بُنيّتي.

زينب: وأنتِ كذلكِ أمّي، والآن اسمحي
لي بالذهابِ إلى بيتِ جدّتي.

آمنة: قد سمحتُ لكِ، اذهبي على بركة
الله، ولا تنسِ دُعاء الطريق.

ذهبت زينب إلى بيتِ جدّتها؛ لتقرأ الجزء
الأخير من الكتاب، الذي تُطالعه مُنذُ
فترة.

ألقت السّلام على جدّتها، وقبّلت يُمناها
وجبينها، ثمّ دلفت عُرفة المكتبة.

بسملت وأخذت تقرأ حتى انتهت،
فأخرجت دفترها وسطرت به بعض
الاستنباطات، الناتجة عن مطالعتها
المكثفة.

عَلِمْتُ زَيْنَبَ أَنَّ أَبَاهَا قَدْ وَقَعَ فَرِيْسَةً
لشَّيَاطِينِ الْإِنْسِ مِنْ مُبْتَدَعَةِ الصَّوْفِيَّةِ،
الَّذِينَ ضَلُّوا وَيُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ.

بكيت وبكيت حتى كَادَ الْحُزْنَ أَنْ يُذِيبَ
كِبْدَهَا!

حملت على عاتقها أمر هِدَايَةِ أَبِيهَا؛ إِذْ
هِيَ الْحَافِظَةُ لَكِتَابِ اللَّهِ، الْمُتَفَقِّهَةُ فِي
دِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَرِيٌّ بِهَا أَنْ تَأْخُذَ
بِيَدِهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

سألت ربّها العَوْن، وعاهدت نفسها ألا
تترك والدها لشّياطين الإنس ليسلبوه
دينه.

في إحدى صباحات شهر أبريل، تحديدًا
في صباح يوم السادس عشر منه،
استيقظت زينب قبل الفجر، فتوضأت
وصلّت ما شاء لها أن تُصلي، وجلست
تذكر ربّها في مُصلاّها، حتّى صارت
فجرها بمعيرة أمّها وأخويها، ثمّ تلت
وردها من القرآن الكريم بعدما قرأت
أذكار الصباح، وبعدها تناولت كوبًا من
الحليب، وذهبت بصُحبة آمنة إلى
المدرسة الإعداديّة؛ حيثُ الامتحانات.

دلفت زينب الفصل محلّ لجنّتها، أخرجت
أقلامها ثمّ وضعت الحقيبة خارج الفصل.

دقائق معدوداتٍ وكانت قد استلمت ورقة
الامتحان، بسملت وسألت ربّها التيسير،
ثم شرعت في الحلّ.

وقبل انتهاء الوقت المحدّد للامتحان،
كانت زينب قد انتهت من حلّ جميع
الأسئلة حلًّا نموذجيًّا، لكنّها وللأسفِ
الشديد قد شعرت برغبة قويّة في التقيؤ،
حاولت أن تتحمّل لكنّها لم تُفلح.

أمسكت معدتها، واستأذنت من
المُراقبين، ولم تنتظر إذنهما فأسرعت
بالخروج إلى دورة المياه، لتُفرغ
مُحتوى معدتها وأمعائها.

تبعثها المُعلّمة التي تُراقب على لجنّتها،
فراستها تقيء دون توقف.

ساندتها إذ كادت أن تهوي أرضاً،
وخرجت بها لتعودا إلى لجنة الامتحان،
لكنّها وقبل أن تصل عادت إلى دورة
المياه مرّة أخرى؛ لتقيء.

أسرعت المعلّمة إلى رئيس اللجنة،
فأخبرته بأمرها، فما كان منه إلّا أن
تعاطف معها، فأذن لها بالذهاب إلى
البيت.

عادت إليها المعلّمة تحمل حقيبتها،
أعطتها لها وقالت: قد أذن لك رئيس
اللجنة بالعودة إلى البيت، وسأرافقك أنا
خشية أن تُصابي بمكروه.

شكرتها زينب بإشارةٍ تحمل معنى
الإمتنان، ثمّ أخبرتها أنّ أمّها تنتظرها
بحوش المدرسة.

ساندتها المُعلّمة وأوصلتها لأُمّها، ثُمَّ
عادت إلى الفصل.

لظمت آمنة خديها حينَ رأت ابنتها
تهوي أرضًا.

أسرعَ إليها أبو وجيه (عامل النظافة)،
وحملها ووضعها على الأريكة، وأبلغَ
رئيس اللجنة، فجمعَ لها أُجرة سيّارة،
لتوصلها إلى بلدتها، كما أمرَ أبا وجيه
أن يُرافقهما حتّى تصلا إلى البيت.

قد بدأ مفعول السّحر يسري بجسدها
مولاي.

قالها أحد سحرة الجنّ.

اللاشيء: أخيرًا سنُخرس لسانها عن
التلاوة والذكر.

أحد السحرة: رُبَمَا لَا يَتَحَمَّلُ جَسَدُهَا مَا
عَقَدْنَاهُ لَهَا مِنْ سِحْرِ فَتَّهْلِكِ.

اللاشيء: مِثْلُ تِلْكَ الْفَتَاةِ لَنْ تَهْلِكَ حَتَّى
تَقْتَصَّ مِنَّا لِحَقَّهَا.

أحد السحرة: وَمَا الْعَمَلُ إِذَا يَا مَوْلَايَ؟
اللاشيء مُدَاعِبًا لِحَيْتِهِ: الْأَسْوَدُ، السِّحْرُ
الْأَسْوَدُ سَيَكُونُ هُوَ الْقَشَّةُ الَّتِي قَصَمْتَ
ظَهْرَ الْبَعِيرِ.

أحد السحرة: أَوْنَسَحَرَهَا بِهِ الْآنَ؟
اللاشيء: لَيْسَ الْآنَ، لَنْتَرِيَّ ثَقَلِيلاً
وَنُعْطِي لِلْأَسْحَارِ وَقْتَهَا؛ كَيْ تَفِي
بِالْغَرَضِ، فَإِنْ لَمْ يَحْدُثْ نَلْجَأُ لِلْسِّحْرِ
الْأَسْوَدِ وَمَا هُوَ بِخَاذِلِنَا.
أمر مولاي.

قالها وانصرف، تاركًا اللاشيء غارقًا
في التفكير بأمر زينب.

بالله عليك يا عمّ أبا وجيه، أوصلنا إلى
الوحدة الصحيّة، فحالة زينب تزداد
خطورة.

قالتها آمنة وهي تحتضن ابنتها.

أبا وجيه: حسنًا يا ابنتي، وأرشد السائق
إلى طريق الوحدة الصحيّة.

وصلوا إلى هناك، ولحسن الحظ قد
وجدوا الطيبة (مادلين) تُنهي النوبتجيّة
الخاصّة بها، وما أن رأتهم حتّى فتحت
لهم باب غرفة الفحص، وانتظرت حتّى
وضع أبا وجيه زينب على السرير
وغادر.

أخذت الطبيبة تتفحصها جيّدًا، ففوجئت
بتغيّر لون أظفارها من اللون الوردي
إلى الرصاصي القاتم، بالإضافة لبرودة
شديدة بأطرافها.

دقائق معدوداتٍ وكانت نتيجة الفحص هي، إصابة زينب بنزلة مُعويّة، وهبوط حادّ بالدورةِ الدُمويّة، بالإضافةِ لهبوط البُطين الأيمن من القلب، وكذا انخفاض حادّ بضغط الدّم.

ماذا حلّ بها حضرة الطيّبة؟

قالتها آمنة بلهفة.

تساقطت عِبَرَات الطَّبِيبَةِ قَبْلَ أَنْ تُضَيَّفَ:
هِيَ شِبْه مَيِّتَةٍ يَا أُمَّهَا.

صرخت آمنة: ماذااااااااااااا؟

الطبيبة: سأفعلُ ما بوسعي والشفاء بيد
الله.

أسرعتُ الطبيبة إلى صيدلية الوحدة،
فأخذتُ ما يلزمها لعلاج زينب، وعادت
على الفور.

أسرعتُ بتركيب قنية التروية (الكانيولا)؛
لتستطيع إدخال المضادات الحيويّة بشكلٍ
أسرع إلى الجسم.

أعطتها الكثير من المضادات الحيويّة
المُتنوّعة، بما يتناسب مع حالتها
الخطيرة.

كانتُ الطبيبة تُناديها بصوتٍ مُرتفع أثناء
إعطاءها المضادات الحيويّة؛ لتطمئنَ
بأنّها لا زالت على قيد الحياة.

مرّت ساعة ونصف، وبعدها شرعت
الطبيبة في عمليّة التغذية الوريدية
لزينب؛ عن طريق المحاليل المُقويّة،
التي تحتوي على الفيتامينات والمعادن.

لحظاتٍ وفتحت زينب عيناها، وما أن
رأتها الطبيبة حتّى استبشرت خيرًا،
ونادت آمنة الجالسة بركن الغرفة تبكي
حتّى تلوّنت عيناها بلونِ الدّم.

الطبيبة: الحمدُ لله أنّها لم تمُت.

نظرت آمنة إلى ابنتها المُستلقيّة على
سرير الفحص لا تقوى على الحركة،
وذرفت عيناها رافّةً بحالها، ثمّ سألت
الطبيبة: ما السبب فيما أصابها؟

أجابتها الطبيبة: ربّما تناولت طعامًا أو
شرابًا فاسدًا.

آمنة: لكنّها لم تأكل منذ البارحة، فقط
تناولت كوبًا من الحليب المغلي مسبقًا،
وقد تناولت منه أنا وأخويها ولم يحدث
لنا شيء.

الطبيبة وقد قطبت حاجباها: ما حدث لها
يبدو في ظاهره أنّه نزلة معويّة، لكنّ
باطنه أخطر بكثير؛ إذ كادت أن تموت
على حين غفلة، دون شكايتها من قبل
بأيّ عرض من أعراض المرض.

آمنة بصوتٍ منهاك: أذهبت الخطورة
بعيدًا عنها حضرة الطبيبة؟

الطبيبة بصوتٍ حزين: لا للأسف
الشديد، بل ستكون ساعاتها القادمة أشدّ
خطورة، فإنّ جاء الصباح وهي على قيد

الحياة فقد نجت، وإلا فالبقاء لله ربّ
العالمين.

أخذت آمنة تبكي حتّى ربتت الطيبة على
قلبها بقولها: استبشري خيرًا، ستمرّ
الساعات القادمة على خيرٍ بعونِ الله،
فقط انتبهي ولا تُطعميها أيّ شيءٍ
يحتوي على الزيت أو السمن، إنْ جاعت
وطلبت منك الطعام، وأظنّه لن يحدث إلى
الغد، لأنّ التغذية الوريدية التي قمت
بعملها لها، ستُغنيها عن طلب الطعام،
ولكنْ إنْ حَدَثَ وطلبت قدّمي لها بعض
الفايش المُبتلّ بالقليل من الماء، ولا
تُعطيها الماء لمدة أربع ساعاتٍ من
الآن، حتّى وإنْ جَفَّ حلقها، أبعدني عنها
الماء لسلامتها.

آمنة: سأفعل بإذنِ اللهِ حضرة الطيبة،
شُكراً لكِ، لإنقاذكِ حياة ابنتي، أنا آمنة
ابنة الشيخ زكريا أبي العُمدة، سأرسل
ثمن الفحص حينَ أعود إلى البيت.

الطيبة مُبتسمة: لا تشكريني بل اشكري
الرحمن، فهو مَنْ أخذَ بيدها ونجّاهَا،
رَحِمَ اللهُ عَمَّنَا الشيخ زكريا، وباركْ في
الخالة راجية، لا تُرسلِي شيئاً، فما فعلتهُ
غِيضَ مَنْ فِيزُ معروف أبيكِ عليَّ
وعلى البلدة بأكملها.

ثُمَّ أعطتها بضعة عُلْب تحتوي على
مُضادات حيويّة، تُؤخذ عن طريق الحقن
العضلي، وأخبرتها بأنّها ستُرسل لها
المُمرضة (سيلفيانا)؛ كي تُعطيها الدواء

في مواعيده التي حددتها لها، بواقع
أmbولين كلّ إثني عشر ساعة.

الفصل التاسع عشر

عادت آمنة إلى البيت بمعاونة إحدى السيدات؛ حين رأيها تُساند زينب، أسرعن إليها وأقسمن ألا يتركنها إلا بالبيت.

وصلن البيت فبقيت معها إحداهن، بينما ذهبت الأخرى إلى بيت راجية لتُخبرها بما حدث.

ولولت راجية حين أخبرتها المرأة، فارتدت الحُبرة وأسرعت إلى آمنة بصُحبتهما هي وسالم وغانم.

زينبي، فلذة كبدي، ليتني أنا التي أُصيب مكانك!

قالت لها راجية حينَ رأت زينب مُستلقية لا
تَقوى على الحركة.

ارتمت آمنة في حضنها وأخذت تبكي،
حتى همست زينب: قولي يا ربّ أمي.

وهنا كففت راجية دمعها وقالت: جُعلت
الشدائد للأبطال، وأنتِ سيّدة الأبطال
زينب، كوني قويّة كما عاهدتك، لا
تستسلمي أبداً للمرض ولا لغيره، ما
حدّث لك اليوم ما هو إلّا منحة لزيادة
صبرك، وتقويّة لصلتك بالله.

تبسمت لها زينب دون أن تردّ.

علّمت العمّة ماريّا بالخبر فجهزت واجب
الزيارة، وهرعت إلى آمنة، طرقت
الباب، فتح لها سالم، ألقت عليه السّلام

وقبّلت جبينه، ثُمَّ وضعت واجب الزيارة
بجانب الأواني، ونظرت إلى زينب فبكت.

احتضنتها أمانة وهي تربت على كتفها،
بينما راجية تقول لها: تعالي يا أمّ ماجد،
اقدي بجواري يا ابنة الغالية.

قبّلتها راجية بينَ عينيها، كما قبّلت هي
يُمنّاها وقعدت بجوارها.

نظرت إلى زينب ولم تستطع أن تُخفي
دمعها؛ فزينب غالية على قلبها غلاوة
الأمّ لابنتها.

اقتربت منها وقبّلت يمينها بحنانٍ
وقالت: أنتِ بطلة ولن يهزمك المرض
ولا غيره، شفاكِ الله وعافاكِ (أمّ هاشم).

أَخَذْنَ يَتَحَدَّثْنَ بِجَوَارِهَا عَنْ مِيزَاتِهَا
وَجَمَالِهَا، حَتَّى أَطْمَأْنَنْتَ وَنَامَتْ، وَلَيْتَهَا لَمْ
تَفْعَلْ!

الفصل العشرون

رأت نفسها في وسط الصحراء، لا طير
ولا شجر، ولا وجود لأي إنسان، أخذت
تُنادي على أمها لکن لا أحد يجيب،
سارت بضعة أمتار وفجأة سمعت صوتًا
يُشبه الهمس يُناديها: زينب، زينب.

نظرت حولها فلم تجد أحدًا ولا زال
الصوت يتردد، شعرت بالخوف فأسرعت
تعدو؛ هربًا من الصوت.

رأت كوخًا على بُعد سبعة أمتار من
مكانها، تهلت أساريرها وأسرعت إليه،
علّها تجد ضالتها.

وصلت إليه فوجدت شيخًا قد تلوّنت
لحيته العظيمة بالبياض، وكذا شعره

الكثيف، اقتربت منه فألقت عليه السلام،
وقبل أن تجلس قال لها: مرحبًا بابنة
المُختار، مرحبًا ببركة من الله كما
يُلقبها، لكم انتظرت قدومك إلى هنا
زينب، وها أنتِ قد جئتِ.

لم تفهم زينب مقصده، فسألته التوضيح.

قام من مكانه وخلع رداءه، ثم قال
بصوتٍ مُخيف: أنا الذي لا يُقهر، أنا
الذي لا يُهزم، أنا الذي لا يفنى!

تبينت حقيقته لزينب، فأخذت تستعِذ
بالله العليّ العظيم من الشيطان الرجيم،
حتى اختفى من أمامها، واختفى معه
الهاتف الذي يُناديها.

فتحت عيناها فجأة، واعتدلت في فراشها، وأخذت تجول ببصرها حتى عرفت أنّ ما رآته كان كابوسًا لا أكثر.

تهالت أسارير آمنة حين رأت ابنتها جالسة، إذا قد تخطت بفضل الله مرحلة الخطر.

صباح الجمال والهناء على زيني.

قالت آمنة وهي تُقبلها بين عينيها.

زينب بصوتٍ مُنخفض: صباح الخير أمي.

كانت راجية تتوضأ لصلاة الضحى، وما أن دلفت الغرفة ورأت زينب، حتى زغردت بصوتها الرنان.

راجية بعدما قبّلتها: حمداً لله على
سلامتكِ أميرتي.

زينب: سلمت لي جدّة.

ساعدها آمنة على تبديل ملابسها، ثمّ
ساندتها واستعدّت للذهابِ بها إلى
الوحدة الصحيّة، وقبل أن ترتدي
حُبرتها، سمعت طرقاً على الباب، فتحت
راجية فإذ بها العمّة ماريّا، قد أتت
لتذهبَ معهما.

قبّلت راجية وقبّلتها راجية، وهكذا فعلت
مع زينب وآمنة.

راجية: هل أذن لكِ أبا ماجد؟

ماريّا: أجل خالة، قد أخبرته بما حدّث
فأذن لي بالمجيء وقتما أريد؛ لعلمه
بمدى حُبّي لكنّ وقربي منكّن.

راجية: هداه الله، وأصلحه لك.

ماريا: آمين يا رب.

آمنة: دُمتِ لنا ولا حُرمناك أبداً أختي.

ماريا وقد ربتت على كتفها بحنان:
وأنئنَ كذلك أختي.

ذهبنَ إلى الوحدة الصحية، كانتِ الطبيبة
مادلين في إنتظارهنَّ، وما أنْ دخلنَ حتَّى
هشَّت لهنَّ وبشَّت، وأسرعت إليهنَّ
تُحييهنَّ بتحيّة الصباح.

أخذتِ الطبيبة مادلين تتفحص زينب،
بينما آمنة تقعد هي وماريا على الأريكة
بركنِ الغرفة.

أنهت الطيبة فحصها، وطمأنتهما بأنّها
قد تخطت مرحلة الخطر، وبإمكانها أن
تعودَ لامتحانها في الأسبوع القادم.

زغردت ماريّا فرحًا بالخبر، ثُمَّ أَخَذَتَا
زينب وعُدْنَ إِلَى الْبَيْتِ.

كَانَتْ رَاجِيَةً قَدْ ذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِهَا، وَأَمَرَتْ
سَالِمَ وَغَانِمَ بِالْبَقَاءِ فِي الْبَيْتِ، وَطَلَبَتْ
مِنْهُمَا أَنْ لَا يَفْتَحَا الْبَابَ لَغَرِيبٍ.

صَعِدَتْ سَطْحَ الْبَيْتِ، فَاخْتَارَتْ بَطَّةً كَبِيرَةً
الْحَجْمِ وَفَرَخَتَيْنِ، وَثَلَاثَ إَوَّزَاتٍ، ذَبَحَتْهُنَّ
وَوَضَعَتْهُنَّ فِي طَسْتٍ مُتَوَسِّطِ الْحَجْمِ،
وَابْتَاعَتْ بَعْضَ الْكِيلُو جَرَامَاتٍ مِنْ
الْطَمَاظِمِ وَالْبَطَاطَسِ، وَالْبَصْلِ وَالْأَرْزِ.

حملت الطست فوقَ رأسها وعادت إلى
بيتِ آمنة، فوجدتهنَّ قد عُدنَ من الوحدة
الصحيّة.

أخبرتها ماريّا بنتيجة الفحص، فهالت
وكبّرت، وحمدت الرحمن على سلامة
حفيدتها، وأمرت آمنة أن تطهو ما
أحضرتُه لها من طيورٍ وخُضر.

أسرعت ماريّا إلى الموقد الحطبي
فأشعلت به النيران، ووضعت آنية طهو
بها ماء ليغلي؛ كي يسهل عليها نتف
ريش الطيور، ومن ثمّ تنظيفها وطهوها.

بينما آمنة قد غسلت الطماطم، وبشرتها
بواسطة مبشرة ألومنيوم، قد استعارتها
من بيتِ الحاج عبد القادر جارهم.

وغسلت البطاطس بعدَ تقشيرها،
وقطعتها مكعبات متوسطة الحجم،
وقطعت البصل مكعبات صغيرة جدًا.

جلست راجية بجوار زينب، تُحدّثها
باليّن من الكلام، لتهوّنَ عليها مرضها،
كما جلسَ سالم ليروي لها حكاية من
حكاياهُ الخياليّة، أمّا غانم فكانَ يُضحكها
بفكاهته اللطيفة.

انتهت آمنة من طهي الطعام، بينما ماريا
تقوم بعمل خُبز الرُقّاق (نوع من الخُبز
الرقيق المُنبسط، المصنوع من الدقيق
والماء مع إضافة الملح) المرشوش
بالسمن البلدي.

وبعد ربع ساعة كانَ الغداء جاهزًا.

سمّي الله يا ماريا.

قالتها راجية وهي تُعطيها بعضًا من خُبز
الرُّقاق.

بِسْمِ اللَّهِ.

قالتها ماريًا بعدما أخذت الرُّقاق.

زينب لن أقبل بأقل من تناول هذه البطة.

قالتها آمنة، وهي تضع أمامها آنية
طهو، بها بطة عائمة في المرق اللذيذ.

زينب مُبتسمة: لكنني لستُ جائعة أمي.

ردّت راجية: لا تخافي، تناولوها وأنا
معك إن حَدَثَ لك شيء، سأذهب بك إلى
الوحدة الصحيّة.

تبسمت لها زينب وشرعت في تناولها،
وما أن فعلت حتّى سرى الخوف بقلبها؛
إذ شعرت بأنّ الطعام مُسمّم!

لكنَّها لم تتحدَّث، فقط انسحبت بهدوء
وعادت لرقادها على الفراش، وحين
سألتها راجية، أجابتها بأنَّها قد شَبِعت.

أخذت تنظر إلى الطعام بعينين دامعتين؛
إذ كانت تُحِبُّ هذا الطعام كثيرًا، لكنَّ
شيئًا ما قد حالَ بينها وبينه.

مَضَت الأيام وحينَ موعد امتحانها
الثاني، توكَّلت على ربِّها، وحضرت رغم
ما بها من أوجاعٍ اللهُ بها عليم.

دلفت الفصل، لكنَّها لم تستطع الجلوس؛
فجهازها الهضمي غير مُستقر، وكأنَّ بهِ
ما يؤدِّ الخروج، بالإضافة لرغبتها
القويَّة في التقيؤ.

بسملت وسألت ربِّها العَون، وهُنا حَدَثَ
ما لم تتوقعه؛ إذ رأتُ القلم وهو يسطر

الإجابات النموذجية، حتّى إذا ما انتهى
سكنَ وكأنّه قد مات!

تُنتهي الامتحان قبل أن تمرّ ربع ساعة
على تسليم الأوراق، ثمّ تخرج لتعود
بصحبة أمّها إلى البيت، ظلّت هكذا حتّى
انتهت الامتحانات.

قد مرّ شهران على مُصاب زينب، سكنَ
فيهما الحُزن قلوب مَنْ يُحبُّونها،
بالإضافة لقلبيّ آمنة وراجية.

قد خسرت زينب ثلاثة أرباع وزنها، ذابَ
جسدها بعدما اكتسى بالصفار، اصفرت
بشرتها بل وجلدها كُله، حتّى أنّ سالم
وغانم قد تركا البيت خوفاً من لونها،
وأقاما ببيتِ راجية.

كانت كالخارج من القبر للتوّ، تساقط
شعرها الطويل الفاحم، ذهبَ بريق
عينها الساحر، فقدت صحتها بالتدرّج.

قد حال السّحر بينها وبين تناول الطعام،
فكانت ترى الطعام ولا تقترب منه، لما
ترأه فيه من سُمّ قاتل.

تمرّ الأيام وحالتها تزداد سوءاً عن اليوم
الذي قبله، صار الألم مُلازماً لها، لا
تمض ليلة دون بُكائها، تبكي من شدّة
الوجع، ويكأنّها طفلة يتيمة!

ظهرت نتيجة الامتحانات، قد احتلّت
المركز الأوّل على مُستوى المركز،
تحاملت على نفسها، وذهبت بصُحبة
أمّها؛ لتقديم أوراقها بالمدرسة الثانويّة
العامة، وما أن رآها المُعلّم الذي يعرفها

مُنْذُ الإِعْدَادِيَّةِ، حَتَّى أَصَابَهُ الذَّهُولُ
فَأَسْقَطَ دَفْتَرَهُ، وَقَالَ: زَيْنَبُ، أَيْنَ جَسَدِكَ؟

مَا الَّذِي أَصَابَكَ يَا ابْنَتِي؟

خَجَلْتُ وَقَالَتْ: قَدْ خَسِرْتُ وَزَنِي مِنْ
الْمُذَاكِرَةِ حَضْرَةِ مُعَلِّمِي!

لَكِنَّهُ لَمْ يَقْتَنِعْ وَتَابِعَ: لَا، لَيْسَ صَحِيحًا،
قَدْ ذَابَ لَحْمُكَ يَا ابْنَتِي، أَيْنَ ذَهَبَ
جَسَدِكَ؟

لَمْ تَدْرِ مَاذَا تَقُولُ، فَتَرَكْتَهُ وَغَادَرَتْ.

قَدْ بَاعَتْ رَاجِيَةً بَعْضًا مِنَ الطُّيُورِ الَّتِي
تُرَبِّيهَا؛ وَذَهَبَتْ بِزَيْنَبَ إِلَى الْمَرْكَزِ،
لِتَفْحَصَهَا عِنْدَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ،
وَالْمَعْرُوفِ بِخَبْرَتِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ
مُخْتَلَفِ حَالَاتِ الْجَهَازِ الْهَضْمِيِّ.

فحصها الطبيب، وقامَ بعمل بعض
الأشعة والتحاليل لها، وطلبَ منها أن
تُعاود الزيارة بعدَ أسبوع.

لم تهنأ زينب بنومها طيلة الأسبوع؛ إذ
تُلاحقها الكوابيس كُلّما أغضت عينيها،
وكأنّها تنتظرها؟

ذُبلت الوردة قبلَ أن تتفتح للدُّنيا، بل
قُطفت بيدٍ غادرة لم يُظنّ بها السوء.

ها قد مَضى الأسبوع، ماذا هُناك حضرة
الطبيب؟

قالتها راجية.

الطبيب بعدما قرأت نتائج الفحوصات: لم
أرى طيلة سنوات عملي كحالتكِ زينب!

راجية: ولمَ حضرة الطبيب؟

الطبيب: النتائج كُلُّها تُوحى بأنَّ زينب
سليمة، لا تشكو من عِلَّةٍ.

اتسعتْ حدقتهاها وقالت: كَيْفَ وأنا أُشوى
بنارٍ لا تُرى؟

نظر إليها الطبيب وقال: وأيُّمُ الله يا
زينب، إنَّ نتائج الفحوصات كُلُّها سليمة
ومُطمئنة.

جدَّتِي أخبريه كَيْفَ كُنْتُ وكيفَ أصبحت؟

قالتْها زينب وهي تربت على كتفِ
راجية.

راجية بصوتٍ حزين: يكفيكِ عِلْمُ العليم
يا ابنتي.

عادتا إلى البيت بوجهٍ عَبَّوس، فما تمرَّ
به زينب لا يُمكن تصديقه.

الفصل الحادي والعشرون

مرّت الأيام وأصبحت زينب مُقيمةً
بالبيت، خارت قواها فلم تستطع الذهاب
إلى المدرسة، ضعفت بنيتها، بهت
جمالها، سُلبت زهرة شبابها، لتحيا
بجسدٍ فُرضَ عليها بفعلِ الظلم.

باعت راجية قيراطاً من بيتها وبقيت في
القيراط الآخر، لم تبخل على زينب
بشيء، بل حاربت الدنيا لأجلها، وباعت
ما تملكه في سبيلِ علاجها؛ كي تعود كما
كانت، وتلك أمنيةٌ مُستحيلة الحدوث!

أقام الحُزن بيتِ آمنة، فابنة عمرها
تخسر حياتها بالتدريج، ولا تجد لها حلاً
بعدما قال الطب كلمته، بأنّه لا يوجد

لديها أيّة أمراض تمنعها من الأكل
والشراب، وممارسة حياتها الطبيعيّة.

أقسمت بأنّ جسدها يُشوى كما يُشوى
العجل الحنيذ! لكنّ لا أحد يُصدّق.

صارت وحيدة كَشاةٍ قاصية، استفردَ بها
الذئب فأكلها!

ذاب جسدها أمام عينيها، ولا تدري ما
السبب؟

رافقتها الوحيدة بعد أن كانت اجتماعيّة،
وإن حاولت العودة إلى حيثُ كانت،
تذوقت ألوانًا جديدة من العذاب، الذي لا
يعلمه إلّا الله.

سألت أمّها لِمَ الصبر على ما نحنُ فيه؟

فأجابتها بأنّ الله مع الصابرين.

تَفَكَّرْتَ زَيْنِبُ فِي وَضْعِهِم المَادِّي
الصَّعِيبِ، فَلَمْ تَجِدِ لَوَالِدِهَا مُبَرَّرًا؛ إِذْ يَعْمَلُ
خَارِجَ مِصْرَ مُنْذُ زَمَنٍ، وَرَغِمَ ذَلِكَ لَمْ
يَبْتَاعَ لَهُمْ بَيْتًا يَلِيقُ بِالحَيَاةِ الِأَدْمِيَّةِ.

يَعِيشُونَ بِبَيْتٍ مَعزُولٍ عَنِ الدُّنْيَا، خَالٍ
مِنْ مَقُومَاتِ الحَيَاةِ، غُرَفَتَيْنِ، وَثُقْبٍ
بِالْأَرْضِ عَلَى هَيْئَةِ دُورَةِ مِيَاهٍ، وَبِاقِي
الْقِيَرَاطِ قَدْ تَبَرَّعُوا بِهِ لِلشَّمْسِ؛ لَتَنْضَجَ
جُلُودُهُمْ وَتُسْكَنَ الحُمَى بِطُونَهُمْ.

بَيْتٌ خَرِبٌ، رُغِمَ إِقَامَتُهُمْ بِهِ، لَا يَعِيشُونَ
فِيهِ وَحَدَهُمْ؛ إِذِ الحَشَرَاتُ وَالزَّوْاحِفُ
تُشَارِكُهُمُ الْإِقَامَةَ!

لَا يَمِضُ يَوْمٌ إِلَّا وَكَانَ أَحَدُ الثَّعَابِينَ ضَيْفًا
عِنْدَهُمْ، وَأَمْنَةٌ كَعَادَتِهَا تُحَارِبُهُمْ بِقُوَّةِ
إِيمَانِهَا.

في إحدى الليالي وأثناء قيامها لصلاة
التهجد، مدّت يدها لتأخذ خمارها من
أعلى الرف، فلامست ملمسًا ناعمًا، لم
تتبيّنهُ حتّى جاءت بالسراج، اقتربت منه
فوضحت لها الرؤية؛ أفعى سوداء
عظيمة الحجم، قد نامت على الرف!

خافت آمنة على أولادها، أين تذهب بهذه
الساعة؟

لم تجد بُدًّا من المواجهة، سألت ربّها
العون، واقتربت من الأفعى، وأقسمت
عليها بقولها: بِسْمِ اللَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ، أَقْسَمُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ
مُؤْمِنٌ، أَنْ تَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ.

قالتها بقلبها، بقوة يقينها بالله العليّ
العظيم، لم تكن الأفعى بحاجةٍ إلى شيءٍ

آخر، بعدما ذكّرتها بالله ربّ العالمين،
فخرجت ولم تعد.

تمضي السنون، ولا زالت زينب تموت
بشكلٍ بطيء، بعدما سُلبت صحتها
وشبابها، وبهت جمالها، لتُصبح هيكلاً
عظماً رغم بقائها على قيد الحياة!

تبدأ يومها بذكر الله، بعد صلاة الفجر، ثمّ
تتلو ما شاء الله لها أن تتلو من القرآن
الكريم، وبعدها تتناول تفتات ببعض
الطعام، لا لشعورها بالجوع، فقد سُلب
منها هذا الشعور، ولكن لئلا تحزن أمة.

تظلّ تتلو القرآن حتّى تُصلي العشاء
وتتأم.

قد فوّضت أمرها لله ربّ العالمين، بعدما
فشل الأطباء في إيجاد دواء لها، بعد

إعطائها الكثير والكثير من الأقراص،
والكبسولات، والحقن سواء عضل أو
وريد، قد تجرعت أدوية تكفي لتجهيز
صيدلية كبيرة، ولكن دون جدوى.

وبعد غيابٍ استمرَّ لعامين، قد اتصل
عابدين على التليفون الأرضي، الخاص
بأحد الجيران، اتصل بها وأمرها أن تُقدِّم
على خدمة الخط الأرضي، أخبرته أنها
سترفض، لكنَّه طمأنها بوجود علاقة
صداقة بينه وبين مدير المكتب الذي
ستذهب إليه.

تحاملت زينب على نفسها، وذهبت إلى
بيت جدتها راجية؛ أعدت لها جدتها
غداءً شهياً كما كانت تفعل قبل مرضها،
الغريب في الأمر أن زينب قد تناولته

دونَ أَنْ تُصَابَ بِأذى كما يحدثُ لها
بالبیتِ.

دخلت غرفة المكتبة، فقرأت بعض
التفاسیر الخاصة ببعض آی الذکر
الحکیم، ثُمَّ بحثت عن الرُقیة الشرعیة
التي كان یرقیها بها جدّها، لكنّها لم
تجدّها.

أمسكت دفترها وأخذت تسطر ما تراه
من مُفزعَات الأحلام، أهوال لا یصدّقها
عقل، بل لم تَكن لتُصدّقها هي لولا أَنْ
عایشتها لحظة بلحظة.

ثُمَّ أمسكت بمُصحفِ جدّها الشیخ زکریا
رَحِمَهُ اللهُ، وتلت سورة البقرة، وعادت
بعدها إلى البیتِ.

سوق مُزدحم بالبشر، أحد الرجال يُمسكُ
بساطورٍ قصَّاب، يُنادي بأعلى صوته،
تجتمع النَّاس حوله، يتكلَّم بكلماتٍ غير
مفهومة، يُصفق له الجمع، يضحك
ويضحك، ثُمَّ تقترب زينب بعدما تسمع
صوتًا يُناديها: زينب أدركيني، زينب
أنقذيني!

تقترب فتفزع من هول ما تراه؛ إذ أنَّ
حامل السَّاطور القصَّاب قد بدأ للتَّوَّ
التقطيع في جسد أحد الرجال بعدما كبَّله
بالأغلال.

شاهدته وهو يتقطع أمام عينيها والدَّماء
تسيل منه، الأكثر رُعبًا حينَ ناداها
بقوله: زينب أعيدي رأسي إلى جسدي،

وللمي قطعي كي أكتمل، فما كان منها
إلا أن صرخت بكلّ قواها.

احتضنتها آمنة وهي تتصبّب عرقاً،
وتبكي ويرتعد جسدها من شدّة الخوف.

أهي الكوابيس؟

قالتها آمنة.

أومات لها زينب أن نعم.

أخذت آمنة تقرأ عليها من القرآن الكريم
حتى نامت.

الفصل الثاني والعشرون

مرّت الأيام وقد تمّ تركيب التليفون الأرضي ببيتِ آمنة، حدّثها عابدين بأنّ أحد السحرة قد قامَ بعمل مُختلف الأسحار لزَيْنَب!

أنكرت عليه قوله، لكنّه أكّد لها أنّه قد قامَ بفكّها، خشية أن تفتك بابنته.

وبعدها بأيّامٍ أخبرها بأنّ ليلي امرأة عزّ الدين، هي من قامت بتلك الفعلة النكراء؛ لتنتقم من آمنة بابنتها.

حدّثته زينب بما عرفتّه من أمورٍ مُبتدعة الصوفيّة، وما يرتكبونه من مُحرمات، وما يحلّونه من حرام، وقبل أن تُكملَ له نهرها بشدّة وأغلق الهاتف.

جلسَ بإحدى زوايا الغرفة يتذكّر ما حَدَثَ
له.. عابدين هذا هو سيّدي العارف بالله
(تاج السرّ)، سلّه ما شئتَ يُعطيك، ورغم
ذلك هو الفقير إلى الله!

لم يستوعب عابدين ما قاله له (زيدون)،
فوضح له (تاج السرّ) قائلاً: أهلاً بك يا
ولدي، حسناً فعلتَ يا زيدون حينَ أقنعتَه
بالمجيء، فلا يجلس هذه الجلسة إلا من
كانَ مُحِبّاً لله عاشقاً لرسوله، الله، الله.

وتابع بعدَ تمتّته: لذا فستحلّ عليك
بركتي، وسأجعل لك حظّاً من دخول
الجنّة، أقولها لك وأنا سيّدك تاج السرّ،
الله، الله.

اتسعتْ حدقتا عابدين ممّا سمعه، وقال:
وهل يملكُ هذا غير الذي بيده ملكوت كُلِّ
شيءٍ وإليه تُرجعون؟

هنا ضحك تاج السرّ وتابع: هكذا قد
علّمك زكريا أبا العُدة!

بدأت علامات الدهشة واضحة على وجه
عابدين، لكنّ زيدون لم يتركه ليسأل،
وقال له بثقةٍ بالغة: سيّدي العارف بالله
(تاج السرّ)، يعلم ما لا يعلمه أحد، بل
إنّه يعلم ما في الأرحام قبل أن يتخلّق.

زادت دهشة عابدين، وهنا ضحك تاج
السرّ وتابع: ليس شركاً_والعياذُ بالله،
بل هي محبة واصطفاء من الله لي؛ وما
أدراك ما حبّ الله؟

إِنْ أَحَبَّكَ صَارَ عَيْنُكَ الَّتِي تَرَى بِهَا،
وَيَدُكَ الَّتِي تَبْطِشُ بِهَا، هُوَ الْمَحْبُوبُ،
اللَّهُ، اللَّهُ.

صَدَّقْ يَا وَلَدِي مَا تَسْمَعُهُ مِنِّي، وَدَعِكْ
مَنْ عَلِمَ زَكْرِيَّا الزَّائِفَ، وَلَا تُتَصِّتْ لِقَلْبِكَ
فَتَهْلِكَ، أَمْنَةٌ مَا هِيَ إِلَّا وَعَاءٌ، خَلَقَهَا اللَّهُ
لَكَ لِتَتَمَتَّعَ بِهَا وَتُفَرِّغَ بِهَا شَهْوَتَكَ.

عَابِدِينَ: وَلَكِنْ، كَيْفَ عَرَفْتَ كُلَّ هَذِهِ
التَّفَاصِيلِ؟

زِيدُونَ: أَلَمْ يَقُلْ لَكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ اصْطَفَاكَ؟!

تَاجُ السَّرِّ: اللَّهُ، اللَّهُ، اللَّهُ.

عَابِدِينَ بَوَجَلٍ: وَلِمَاذَا أَنَا؟

زِيدُونَ: بَلْ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى اخْتِيَارِ
سَيِّدِنَا لَكَ.

تاج السرّ بنبرةٍ مُطمئنة: نَحْنُ لَا نَخْتَارُ
يَا وَلَدِي، لَكِنَّ اللَّهَ هُوَ مَنْ يُرْسِلُ لَنَا
الْأَخْيَارَ، وَأَنْتَ مِنَ الْأَخْيَارِ عَابِدِينَ.

عابدين: لَكُنَّيْ أُمِّي، لَا أَعْرِفُ الْفَرْقَ
بَيْنَ الْكُوعِ وَالْكَرْسُوعِ كَمَا يُقَالُ، وَ....

تاج السرّ مُقاطِعًا: وَمَنْ قَالَ إِنَّنَا نَقْبَلُ
الْمُتَعَلِّمِينَ؟

نَحْنُ لَا نَقْبَلُ إِلَّا مَنْ كَانُوا مِثْلَكَ يَا وَلَدِي،
الْأَتَقِيَاءَ الْأَصْفِيَاءَ الْأَتَقِيَاءَ؛ لِيَكُونُوا وَرَثَةً
لَنَا مِنْ بَعْدِنَا.

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أُمِّي مِثْلَكَ، السَّلَامُ
عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، اللَّهُ،
اللَّهُ.

عابدين: بَلَى، أَعْلَمُ وَاللَّهُ أَعْلَى وَأَعْلَمُ.

تاج السرّ: هل تُحِبُّ أَنْ تكونَ مثلي يا
ولدي؟

عابدين بدهشةٍ: مَنْ؟ أنا؟!

تاج السرّ: أجل، لا تُحقر من شأنك، فقد
كشفتُ عليك ووجدتكَ معروفًا عندهم، بل
وصاحب كلمةٍ إن قلتَ سمعوا، وإن
حدّثتَ صدّقوا.

عابدين بعدما قطبَ حاجباه: وَمَنْ أولئك؟

تاج السرّ: ساداتي، بل أسيادي، ثُمَّ
تشجّ للحظات.

همسَ زيدون: لقد حضروا؟

عابدين بهمسٍ: مَنْ هُم؟

تاج السرّ بصوتٍ مُرتفعٍ: حضرت دولة
الأشباح!!

الفصل الثالث والعشرون

قُطِبَ عابدين حاجباهُ وتساعِل: وَمَنْ هُمْ
الأشباح؟

وَقَبْلَ أَنْ يُجِيبَهُ زِيدُونَ شَاهِدَ تاج السرِّ
يَتَحَدَّثُ وَهُوَ مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ.

السَّلَامُ عَلَيْكَ سَيِّدِي أَحْمَدُ الدَّرْدِيرِ، قُمْ
وَارْكَبِ الْحِمَارَةَ وَتَبَيَّنْ لَنَا الْعِبَارَةَ!

ثُمَّ تَمَّتْ تَمَتُّمَاتُ لَمْ يَتَبَيَّنْهَا عَابِدِينَ، وَأَخَذَ
يُحَرِّكُ رَقَبَتَهُ يَمِينًا وَيَسَارًا (الرقص
الصوفي)، ويقول: الله، الله، الله.

لَمْ يَقْتَنِعْ عَابِدِينَ بِمَا يَفْعَلُهُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ
_كَمَا يَزْعَمُ، فَطَلَبَ الْإِذْنَ لِلْمُغَادَرَةِ، لَكِنَّ
زِيدُونَ قَدْ أَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ: إِنَّ خُرْجَتَ

خسرت، ألا تُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ
مُذْ وُلِدْتَ وَإِلَى الْآنَ؟

عابدين بدهشة: بالطبع أُحِبُّ، ولكن ما
دخل هذا بسيّدك؟

زيدون: هو الوسيلة التي سيغفر الله لك
ذنْبَكَ من خلالها.

عابدين: لو كان الأمر كذلك، لكان رسول
الله أولى.

هنا فتح تاج السرّ عَيْنِيهِ وقال: عليه
الصلاة والسلام، هو وسيلتنا الكُبرى
للشفاعة.

عابدين مُتَسَائِلًا: أوهناك وسيلة صُغرى؟

تاج السرّ مُبتَسِمًا: أجل يا ولدي.

عابدين: كيف؟

زيدون: لا تُؤاخذهُ سيّدي.

تاج السرّ مُبتسمًا: لا حرجَ عليه يا
زيدون.

زيدون: هنيئًا لك رضا سيّدنا.

عابدين: لكنّ رضا الله هو غايّتي.

اقتربَ منه تاج السرّ وقال: ألم أقل لك
أنّ الله هو مَنْ يُرسلُ لنا الأخيار؟

قد جاءني سيّدي أحمد الدردير، وأرسلَ
إليك السّلام!

عابدين مُندهشًا: ولكنّي لم أراه!

زيدون بغضب: ومَنْ أنتَ حتّى تراه؟

تاج السرّ بنبرة هادئة: هو لا يظهر
للعامّة ولدي.

عابدين: أهو ميّت؟

تاج السرّ مُبتسمًا: بل يحيا بالحياة
البرزخيّة، لذا يحضر لنا عن طريق
الروح، نتلاقى بالروح في الحضرات.

عابدين: أنا لا أفهم شيئًا.

زيدون: أنصت لتفهم.

عابدين: أهو عِفریت؟

تاج السرّ بغضب: بل هو الخارقُ بقوّته،
الحارقُ بنورانيّته، هو النور مرسال
الأنوار.

عابدين: ومَن الأنوار؟

زيدون: الأقطاب الأربعة.

عابدين: أنا لا أعرفهم.

تاج السرّ بنبرة مُطمئنة: لكنّهم يعرفوك
ولدي.

عابدين: مَنْ هُمْ؟ وكيفَ يعرفونني؟

تاج السرّ: الأقطاب الأربعة وهُمْ، سيّدي
العارفُ باللهِ أحمد الرفاعي، سيّدي
العارف باللهِ عبد القادر الجيلاني، سيّدي
العارف باللهِ أحمد البدوي، سيّدي
العارف باللهِ إبراهيم الدسوقي.

أمّا عن كيفية معرفتهم بك، فهُمْ الأقطاب
لا تخفى عنهم خافية.

زيدون: الله، الله.

عابدين: أوأحياءٌ هُمْ؟

زيدون بغضب: الأقطاب لا تموت.

تاج السرّ: أجل، انتقلوا من الحياةِ
الدُّنيويّة إلى الحياةِ البرزخيّة.

عابدين: أهُم أشباح؟

تاج السرّ: أجل، هم دولة الأشباح.

عابدين: أوشبح أنت؟

زيدون غاضبًا: دعني أضرب عنقه سيدي.

تاج السرّ: بل دعه أنت ليتعلم زيدون.

عابدين: لا تؤاخذني، أنا جاهل بما تعلمون.

تاج السرّ مُبتسمًا: لا تثريب عليك، أغفر لك ما كان منك!

عابدين: ماذا تقول يا هذا؟

زيدون زاجرًا: اخرس، قطع الله لسانك.

عابدين: الله وحده هو صاحب العفو والمغفرة.

تاج السرّ: صدقت ولدي، لكنّ الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قد اختصّ أوليائه
بعدّة ميزات في الدُّنيا، ومنها أن يغفروا
لعباده، ويشفعوا لهم شفاعة صُغرى.

عابدين: شفاعة صُغرى كَسَيِّدِكَ أَحْمَد
الدريّر؟

تاج السرّ مُبْتَسِمًا: أجل، سيّدي أحمد
الدريّر يشفع لنا الشفاعة الصُغرى، أمّا
الأقطاب الأربعة فيشفعون لنا الشفاعة
الكُبرى، والتي هي قبل شفاعة النبيّ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عابدين: كيف عرفتَ شيخي زكريا؟

زيدون: هو العارفُ باللهِ يا أحمق.

تاج السرّ مُبْتَسِمًا: عن طريقِ الكشف.

عابدين: كُشفُ ماذا؟

تاج السرّ: كُشف الحجاب!

الفصل الرابع والعشرون

عابدين مُندهشًا: أومكشوفٌ عنك
الحجاب؟

تاج السرّ: أجل ولدي، ثُمَّ تابع: أتريدُ أنْ
تَرى ولا تُرى؟

عابدين: ماذا تقصد؟

تاج السرّ: أقصد أنْ تَرى مَنْ تريدُ وقتما
تشاء، مُخطيًا حاجز الزمان والمكان!

عابدين بدهشة: وهل ما تقوله حقيقة؟

زيدون: هو لا يكذب أبدًا يا ابن حزينة.

تاج السرّ مُبتسمًا: أجل ولدي، حقيقة.

عابدين بعدَ فترة: وما المطلوب منّي؟

تاج السرّ بعدما نظرَ لزيدون: أهلاً بك
عابدين في عالم الخلود، عالماً
الروحاني، أهلاً بك مُريدًا وطالبًا لعلم
الباطن، والعلم اللدني!

ظلّ عابدين مُلازمًا لتاج السرّ حتّى نسي
ما علّمه إيّاه الشيخ زكريا، وصار رجلاً
من أصحابِ الخطوة.

تعلّم من تاج السرّ ما لم يكن يعلم عنه
شيئاً، بل رأى معه ما لا يمكن لأحدٍ أن
يتوقعه من عارفٍ بالله وولي من
أوليائه!

أتقن معه الحضرة، وعرف كيف تكون
الخلوة؟

قد شاهدته في إحدى المرات يصطحب
معه امرأة - ذات بعل، إلى الخلوة، سأله

فكان جوابه غاية في الغرابة؛ إذ قال
بأنه يُعالجها كي لا تقع في الزنا، والزنا
من أكبر الكبائر، لذا فهو يزني بها
ليطرد الجنيّ العاشق من رحمها.

لم يقتنع عابدين في البداية، وتساءل:
كيف تُعالجها من شيءٍ وتقع أنت فيه
معه؟!!

أجابه تاج السرّ بأنّ بُضْعَهُ مُبارك، ما أن
يلجّ رحمها حتّى يطرد الجنيّ، ويُطهر
قلبها من الأفكار الشّيطانيّة!

مرّت الأيام ورأى عابدين زيدون يأتي
لتاج السرّ بأطفال، ليحضروا معه
الخلوة، انتفض غاضباً واعترض بقوله:
وما دخل الأطفال بالخلوة؟

زيدون: ليس لك الحقّ في الاعتراض.

عابدين: اخرس وإلا أنزلت بك غضبي.

زيدون بصوتٍ خائفٍ: المعذرة سيدي،
لم أكن أقصد.

عابدين: اذهب إلى عملك، هيّا.

زيدون: أمر سيدي.

فَكَرَّ عابدين بما يحدثُ بالخلوةِ مع
الأطفال، لكنَّهُ لم يتحمَّل وأسرَعَ إلى
الساحة المُراد بها الخلوة، فرأى ما لم
يخطر له ببال!

رأى تاج السرِّ وقد أعطى الأطفال مادة
مُنومة، وما أن سرى مفعولها بأجسادهم
الطاهرة، حتَّى انقضَّ عليهم مُفترسًا
طُهرهم، وسارقًا شرفهم، ومُلوثًا
فِطرتهم.

ثارت الفِطْرة السوِيَّة بنفْسِ عابدين، لم
يَقْبَل بالدنيَّة يومًا، هاجَ وماجَ، وضح له
تاج السرِّ بأنَّ ما يفعله هو تنفيذ أوامر
الأسِياد، وطلبَ منه أنْ يُشاركهُ الفِعلَ،
لكنَّهُ أبى.

خَيَّرهُ تاج السرِّ بينَ اغتصابِ الأطفالِ
جنسِيًّا، وبينَ قبولِهِ بِمُضاجعةِ أحدِ
الرجالِ لَهُ!

رفضَ هذا وذاكَ وخرجَ مِنَ الدارِ كُلِّها،
قاصدًا الصحراءَ.

ابتعدَ عن ساحةِ تاج السرِّ، بعدما شاهدَ
ورأى بأنَّ عينِهِ ما لم يَكُنْ يخطرُ لَهُ ببالِ.

سارَ حتَّى وصلَ لكوخٍ متوسطٍ، اقتربَ
منهُ، ألقى السَّلامَ فردَّ عليه شيخٌ عجوزٌ،

قَدَّمَ لَهُ قَدْحًا مِنْ الْمَاءِ، وَهُوَ مُلْتَمِ الْوَجْهَ
عَدَا الْعَيْنَانِ.

قَصَّ عَلَيْهِ عَابِدِينَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ تَاجِ
السَّرِّ، فَتَفَاجَأَ بِهِ يَقُولُ لَهُ: الْعَارِفُ بِاللَّهِ
تَاجُ السَّرِّ لَا يَفْعَلُ الْقَبَائِحَ، وَلَا يَقْعُ فِي
الْكِبَائِرِ وَلَا الصَّغَائِرِ، فَهُوَ الْمَوْكَلُ بِإِنْقَادِ
الْأَرْضِ مِنَ الْمَخَاطِرِ.

لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا وَكَانَ خَيْرًا لِمَنْ فَعَلَ بِهِ،
أَوْ أَمْرُهُ تَأْتِيهِ مِنَ السَّمَاءِ، لَا يَأْتِمُرُ
بِأَوْامِرِ بَشَرٍ، بَلْ بِأَوْامِرِ الْأَسْيَادِ.

عَابِدِينَ: وَمَا الْفَائِدَةُ مِنَ الزَّنا بِالنِّسَاءِ؟

بَلْ مَا الْفَائِدَةُ مِنْ إِغْتِصَابِ الْأَطْفَالِ
وَمُضَاجَعَةِ الذَّكَوْرِ؟

نَظَرَ إِلَيْهِ الْعَجُوزُ، وَقَالَ: تَجَرَّعَ مَا بِيَدِكَ
مِنْ مَاءٍ وَسَأَجِيبُ عَلَى أَسْئَلَتِكَ.

تَجَرَّعَ عَابِدِينَ وَمَا أَنْ فَعَلَ حَتَّى غَابَ عَنِ
الْوَعِيِّ، كَشَفَ الْمُلْتَمَ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا بِهِ
(فَضَلَ اللَّهُ)، أَحَدُ خُدَّامِ تَاجِ السَّرِّ، أَرْسَلَهُ
إِلَى الْكَوْخِ حِينَ عَلِمَ بِوَجْهِهِ عَابِدِينَ لِيَأْتِيَهُ
بِهِ.

عَادَ فَضَلَ اللَّهُ حَامِلًا عَابِدِينَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ،
وَضَعَهُ أَمَامَ تَاجِ السَّرِّ، وَغَادَرَ بَعْدَ أَنْ
أَخَذَ الْإِذْنَ.

أَمْسَكَ تَاجَ السَّرِّ بِدَمِّ الْغِزَالِ (الْمَسْكِ
الْأَسْوَدِ)، وَقَرَّبَهُ مِنْ أَنْفِ عَابِدِينَ، فَعَادَ
لَهُ وَعِيَهُ عَلَى الْفُورِ.

فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَمَا أَنْ رَأَى تَاجَ السَّرِّ، حَتَّى
انْكَبَّ عَلَيْهِ مُقَبِّلًا قَدَمَيْهِ، بَاكِيًا رَاجِيًا
الْغُفْرَانَ.

ساعده تاج السرّ على النهوض، ثُمَّ قَالَ
بَنْبِرَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ: قَدْ غَفَرْتُ لَكَ بُنْيَ.

كَانَ تَاجُ السَّرِّ قَدْ اسْتَعَانَ بِسَاحِرٍ مَاهِرٍ
مِنْ سَحَرَةِ الْجِنِّ، لِيَصْنَعَ لِعَابِدِينَ سَحَرًا
بِالطَّاعَةِ وَهَآ قَدْ كَانَ!

فَمَا تَجَرَّعَهُ عَابِدِينَ لَمْ يَكُنْ مَاءً، بَلْ كَانَ
سَحَرًا أَفْقَدَهُ إِنْسَانِيَّتَهُ وَسَلَبَهُ دِينَهُ فِيمَا
بَعْدَ.

الفصل الخامس والعشرون

تدهورت حال زينب، وضعفت قوتها،
بعدما أمرضها السّحر.

كانت تخشى الأيام التي تحيض بها؛ لما
تراه في منامها من مفزعات الأحلام
والكوابيس.

لم يستطع أبناء إبليس السيطرة عليها
في أيامها العادية، فكانوا يترّبصون بها
أثناء حيضها، فيفزعونها حتى أصابوها
بضعف القلب!

كانت كلما اقترب موعد حيضها انقبض
قلبها؛ لا تحدث بما تراه كي لا تُفزع
أحدًا، يكفي ما يحدث لها من فزع لا
يُمكن لها أن تنساه.

ثلاثة أيام هي مُدّة حيضها، لكنّ ما
يحدثُ فيها من أهوالٍ جعلتها كثلاثمائة
يوم!

كانت ترى أحد العجائز يُطاردها، مُحاولًا
تقبيلها، وآخر يُريدُ أن يحتضنها، فتبكي
وتصرخ وتهرع في الطُرقات.

رأت أيضًا أحد الرجال يقترب منها، وقبل
أن يقعَ عليها استيقظت وهي تصرخ بكُلِّ
قواها: لااااااااااا.

بالإضافة لكوابيس تقطيع اللحوم
البشرية عيانًا بيانًا، والقتل والكثير
الكثير من الدماء.

صارَ حيضها شؤمًا عليها، تمنّت لو لم
تَحض!

خافت زينب التي لم تخف شيئاً يوماً ما،
خافت الصغيرة الطاهرة، خافت وما
الخوف إلا سلاح مَنْ لا سلاح له!

سلاح يرفض به ما يُنافي مبادئه وقيمه،
وما أُسِسَ عليه.

ورغم ما يحدثُ لها إلا أنها لم تترك
قرآنها يوماً، حتّى اتصل والدها وقال لها
ذات يوم: زينب ألم تصومي الاثنين
والخميس من كلّ أسبوع؟

قالت: بلى.

قال: ألم تصومي الأيام القمرية؟

قالت: بلى.

قال: ألم تلتزمي بتلاوة وردك من القرآن
الكريم يومياً؟

قالت: بلى.

قال لها: إِذَا أَيْنَ رَبُّكَ مِمَّا أَنْتِ فِيهِ؟

لِمَ لَا يَدْفَعُ عَنْكَ مَا تُلَاقِيهِ؟

لماذا لم ينفعك قرآنك الذي تُحِبُّهُ؟

أَغْلَقَ الْهَاتِفَ وَتَرَكَهَا وَالْحُزْنَ يَتَخَلَّلُ
قَلْبَهَا، وَكَأَنَّهُ قَدْ حَالَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا!

تَرَكْتَ وَرَدَهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَمَا
تَرَكْتَ الصَّلَاةَ، وَسُلِّبْتَ الْأَمَلَ، فَقَطَّ
تَتَسَاءَلُ: أَبِي مَعَهُ حَقٌّ، لِمَاذَا يَا رَبِّ؟؟

لِمَ لَا تَدْفَعُ عَنِّي مَا أُلَاقِيهِ؟

لماذا لا ترحمني ممَّا أَنَا فِيهِ؟

أَنَا حَزِينَةٌ يَا رَبِّ، حَزِينَةٌ لِأَنَّي أُحِبُّكَ
وَأَنْتَ لَا تُحِبُّنِي!

ظَلَّتْ هَكَذَا لَشَهْرٍ كَامِلٍ حَتَّى حَاضَتْ،
وَبَعْدَهَا عَادَتْ إِلَى صَلَاتِهَا وَقَرَأْنَهَا،
عَادَتْ مِنْ طَرِيقٍ نَهَايَتُهُ مُظْلَمَةٌ، فُرضَ
عَلَيْهَا بِسَّحْرِ الْهَاتِفِ.

تَأَكَّدَ لَهَا أَنَّ مَا أَصَابَهَا كَانَ سَحَرًا،
أَصَابَهَا بِعِلْمِ اللَّهِ، وَلَوْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ الرَّحْمَنُ
لَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا؛ إِذِ السَّاحِرُ يَنْفُتُ فِي
الْعُقْدِ ثُمَّ يَأْمُرُ الْخَادِمَ الْمُوَكَّلَ بِحِفْظِ
السَّحْرِ، فَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ مَا اسْتَطَاعَ
الْوَصُولَ إِلَى الْمَسْحُورِ.

قَالَ تَعَالَى بَعْدَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:
"وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ".

عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ أَحَبَّهَا فَمَيَّزَهَا بِالْبَلَاءِ،
فَوَضَّعْتُ أَمْرَهَا إِلَيْهِ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ،
وَاسْتَعَادْتُ جِزْءًا مِنْ طَاقَتِهَا.

تَسَلَّحْتُ بِالذُّعَاءِ وَلِنَعْمِ السِّلَاحِ هُوَ!

كَانَتْ تَدْعُو اللَّهَ دَوْمًا أَنْ يُظْهِرَ لَهَا حَقِيقَةَ
مَنْ أَذَاهَا، وَمَنْ مَكْرَ بِهَا، دَعَتْ رَبَّهَا
وَهِيَ مُوقِنَةٌ بِأَنَّهُ لَنْ يَخْذُلَهَا.

فِي إِحْدَى اللَّيَالِي شَاهَدْتُ فِي مَنَامِهَا، أَنَّ
شَارِعَهُمْ مُظْلِمٌ ظَلَامٌ دَامِسٌ، لَكِنَّ بَيْتَهُمْ
يَخْرُجُ مِنْهُ نُورٌ؛ نَتِيجَةُ تِلَاوَتِهَا لِلْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ.

خَرَجَتْ لِتُثِيرَ الشَّارِعَ الْمُظْلِمَ، فَوَصَلَتْ
لأَوَّلِهِ فَأَضَاءَتْ بِهِ السُّرُجَ، وَعَادَتْ لِآخِرِهِ
فَأَضَاءَتْهُ هُوَ أَيْضًا، وَمَا أَنْ فَعَلْتُ حَتَّى
انْطَفَأَ نُورُ أَوَّلِهِ!

أسرعتْ إليه فأضاءته فانطفأ نور آخره،
وهكذا كُلُّما أضاءت أوَّلُه انطفأ آخره
والعكس بالعكس.

عَلِمَتْ أَنَّ أَبْنَاءَ إِبْلِيسَ يَتَرَبَّصُونَ بِهَا فِي
غَيْرِ مَوْعِدِ الْحِيْضِ، بِسَمَلَتْ وَشَرَعَتْ فِي
قِرَاءَةِ آيَةِ الْكَرْسِيِّ، وَفَجَأَ ظَهَرَ لَهَا
ذُنْبَانِ لَمْ تَرَ مِثْلَهُمَا قَطُّ، عَظِيمَا الْحِجْمِ
وَالْبُنْيَةِ، أَنْيَابُهُمَا عَاجِيَّةٌ هَائِلَةٌ، يَقِفَانِ
عَلَى رَجْلَيْنِ، طَوْلُهُمَا قَدْ تَخَطَّى الْمَتْرِينَ.

هَبَطَا أَمَامَهَا فَخُلِعَ قَلْبُهَا مِنْ صَدْرَهَا،
وَتَوَقَّفَ لِسَانُهَا عَنْ قِرَاءَةِ آيَةِ الْكَرْسِيِّ،
ثُمَّ غَادَرَا.

فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ سَمِعَتْ هَاتِفًا يُبَلِّغُهَا بِأَنَّ
أَبَاهَا هُوَ مَنْ أَرْسَلَ لَهَا الذُّنْبَانِ، وَهُمَا
مَارْدِينِ مِنْ مَرْدَةِ الْجَنِّ!

الفصل السادس والعشرون

استيقظت فزعة، مذعورة تتصبّب عرقاً،
استعادت بالله ونهضت لتتوضأ قبل أذان
الفجر، ولا زالت تشعر بالأم قد ألم
بنياطها.

شعرت بالذعر ممّا شاهدها، لكنّ الذي
أوجعها أكثر هو ذكر اسم أباهما، لم
تستوعب، بل لم ولن تُصدّق ما قيل فيه.

دعت ربّها أن يُظهر لها الحقّ ويرزقها
إتباعه، وكثّفت من تلاوتها للقرآن
الكريم، فكانت تختمه كلّ خمسة أيّام،
بالإضافة لتعمّقها في فهم تفسير الإمام
الطبري، والسيرة النبويّة وعلم الحديث.

أَرَادَ اللَّهُ بِهَا خَيْرًا فَفَقَّهَهَا فِي الدِّينِ؛ إِذْ
أَعَانَهَا عَلَى تَحْوِيلِ سَجْنِهَا لِرَوْضَةٍ مِنْ
رِيَاضِ الْعِلْمِ، فَلَمْ تُضَيِّعْ وَقْتُهَا فِي الْحُزَنِ
عَلَى مَا كَانَ، وَلَا الْإِلْتِفَاتِ لِلْوَرَاءِ، فَهِيَ
الْوَاثِقَةُ بِأَنَّ مُرَادَ اللَّهِ كَائِنَ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ
وَضْعَهَا هُوَ بِالضَّبْطِ الْمَكَانَ الَّذِي أَرَادَهُ
اللَّهُ لَهَا.

ظَلَّتْ تَجْتَهِدُ وَتَجْتَهِدُ، رَغْمَ ثِقَلِ الْبَلَاءِ
وَمَرَارَةِ الصَّبْرِ؛ حَاوَلَ أَبْنَاءُ إِبْلِيسَ قَتْلَهَا
أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ لَكِنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَّاهَا، نَجَّاهَا
وكَذَلِكَ يُنَجِّجُ الْمُؤْمِنِينَ.

تَحَوَّلَ مَنَامُهَا إِلَى حَرْبِ ضُرُوسٍ لَا يَعْلَمُ
بِهَا إِلَّا عِلَامُ الْغِيُوبِ؛ إِذْ كَانَتْ تَرَى
إِبْلِيسَ رَأَى الْعَيْنِ، غَيْرَ أَنََّّهُ يَأْتِيهَا

بصورة رجلٍ وسيم، يُحاربها تارة
ويشمت بها تارةً أخرى.

شاهدتهُ في إحدى أحلامها المفزعة، كانَ
مُجتمِعًا بزميلاتها وصاحباتها بدورة مياه
هائلة، جميلة وبرّاقة.

اقتربت فرأتهُ يخطب فيهنّ بقوله: لقد
كفرَ سُليمان!

غضبت غضبًا شديدًا وعَلِمْتُ أَنَّهُ إبليس
اللعين، نظرت إليهنّ فرأتهنّ يُنصتنَ له
وكانَ على رؤوسهنّ الطير!

اقتربت منهُ وقالت بقوة يقين: كذبت يا
لعين، وأخذت تتلو بصوتٍ خاشعٍ
ومُزلزل، قولَ الله تعالى: أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ "وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَى

مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَئِنْ
 الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ
 وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ
 وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا
 إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا
 مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا
 هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ
 وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ
 عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
 خَلْقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ
 كَانُوا يَعْلَمُونَ ۚ (سورة البقرة).

أنهت الآية فتزلزل المكان من حولها،
 واختفى إبليس بعدما رأى ناراً عظيمة،
 تلتهم المكان عدا موضع قدمها، وفي
 لمح البصر تبدلت الأرض فكانت تقف

وسط حديقة غَنَاء خضراء، نظرت فلم
يصل نظرها إلى آخرها، شعرت وكأنَّ
الدُّنيا كُلُّها صارت حديقة!

سُـرَّت بما رأت؛ إذ نصرها الله على
عدوّها، وقررت ألا تتهاونَ في طاعةِ
ربّها مهما حَدَثَ لها.

تفاءلت الصغيرة، ونالت أجر الفأل،
لكنّها لم تَكُنْ تَعْلَمُ ما يُخفيه لها القدر!

الفصل السابع والعشرون

قد مات بعض خُدام السحر نتيجة التزام
زينب الطاعة، لم يستطيعوا التكيّف
فمنهم مَنْ فرَّ هاربًا ومنهم مَنْ احترق.

تَضَجَّرَ اللاشيء ممّا حَدَثَ، وقام
باستدعاء أمهر السّحرة لديه، ثُمَّ أمره
بعقد السّحر الأسود لزينب، ليكونَ بمِثابةِ
ضربة قاضية بالنسبة لها.

بعدما انتهى الساحر، أمره اللاشيء
بدفنِ السّحر بقاعِ المُحيط؛ كي لا يتمكن
أحد من فكّهِ فيما بعد، وشدّدَ عليه ألاّ
يُحدّث بالخبر أمام أحد وخاصّةً عابدين،
حتّى لا يُحاول إخراجه.

دقائق معدوداتٍ وكانت زينب قد دخلت
مرحلة جديدة من مراحل البلاء، مرحلة
السحر الأسود ومحاولة تصفيتها.

خارت قواها من جديد، ضعفت طاقتها،
شعرت بشيء غريب يسكن معدتها، بل
ويُدَمِّر جهازها الهضمي تدميراً، لكنَّ
الطب قد قال كلمته بأنَّها صحيحة لا علة
بها.

جاءها إبليس في منامها ليشمت بها،
وهي في أشدِّ مراحل حياتها ضعفاً، فقال
لها: أنتِ ضعيفة الآن يا زينب، ولن
تستطيعي المقاومة، سأخسف بك
الأرض، وضحك.

نظرت إليه والدمع يتساقط من عينيها،
لا تقوى على الحركة أو المقاومة،

جسدها يتوجع وقلبها يتألم، لكنَّ روحها
تأبى الإستسلام.

انطفأت الأنوار من حولها، ساد الظلام،
حتى أنَّها إذا أخرجت يدها لم تكدرها!

أغمضت عينيها كي لا تتأثر بمحيطها،
ثمَّ بسملت بعد الإستعادة وأخذت تتلو آية
الكرسي، فعادَ النور واختفى المذعور.

عانت كثيرًا جدًّا، لكنَّ الذي خففَ عليها
المُعانة، رؤيتها لرسولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانت تراه حينما يشتدَّ
عليها البلاء، يدعو لها تارة ويُبشِّرها
تارة أخرى.

كانت رؤياهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
بمثابة تجديد لطاقتها، ودعم لقوتها،

حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ بِهِ الْحَقَّ، الَّذِي تَبَحَّثَ عَنْهُ.

شَاهَدَتْ سَاحَةً كَبِيرَةً مَلِيئَةً بِرِجَالٍ يَرْتَدُّونَ زِيَّاءَ بَعِينِهِ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِي مُكَبَّرَاتٍ لِلصَّوْتِ عَنِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ _ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَعَنْ آلِ بَيْتِ رَسُولِنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

اقْتَرَبَتْ فَاذْ بِهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ مُبْتَدِعَةِ الصَّوْفِيَّةِ، يَتَزَعَّمُهُمْ أَحَدُ الْمُتَفِيهِقُونَ، وَفَجْأَةً جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ.

تَرَكَهَا فِي مَحَلِّهَا وَرَاحَ لِيُحَارِبَهُمْ بَعْدَمَا قَالَ: آلَ الْبَيْتِ بَرِيءُونَ مِنْكُمْ وَمِنْ زَعَمِكُمْ.

استيقظت زينب وهي تبكي بعدما كشف
الله لها الحقيقة الغائبة، ورغم سعيها في
معرفتها، إلا أنها تمنّت لو لم تعرفها!

واجهت أباهما بالحقيقة فلم يستطع
الإنكار، لكنّه قال لها: سامحيني يا
ابنتي، يعلمُ الله أنّك أحبُّ ابنائي إلى
قلبي، لذا هم يؤذونني فيك، يعلمون أنّ
ما يُصيبك يفطر قلبي.

قد عقدوا سحر الكراهية لتكرهيني،
لكنني ويشهد الله قد ظلمت.

لم تقتنع زينب بما قاله، بل وفاجأته
بقولها: لا تتم أعمامي ثانية، فحتّى
وإن كانوا يكرهونني إلا أنّهم مسلمون،
لا يفعلون ما يُغضب الرحمن، إن كان قد

سحرني ساحر، فأنتَ هذا الساحر أبي لا
أحد غيرك.

أبي، لا زال الباب مفتوح ما لم تمت،
ارجع إلى ربك.

عابدين: وهل لمثلي توبة؟

زينب: أجل، فأنتَ معذور وعُذركَ
الجهل.

عابدين: لكنني على هذه الطريقة قبل أن
أتزوج بأمك، ليس سهلاً عليّ أن أعود
من طريق سلكته في مطلع شبابي.

زينب: قاوم أبي، لا تستسلم.

عابدين: صدّقيني، قد فات الأوان.

زينب: لم يفت، أنتَ أبي ولن أتركك لهم.

عابدين وقد تغيّر صوته: لن تستطيعي.

زينب: بل أستطيع، أبي عُد إلينا فنحنُ
بحاجةٍ إليك.

عابدين: أنا لستُ أباك.

زينب: بل أنتَ هوَ مَنْ خلقتي اللهُ من
صُلْبِهِ.

عابدين صارخًا: إِنَّ أباكِ قد مات، وأنتِ
لستِ ابنتي ولم تُخلقِ من صُلْبِي!!!

زينب بصوتٍ قويٍّ رغم الألم الذي
ينهش داخلها: إِنَّ كُنْتَ صادقًا قُلْ لي أينَ
أبي؟ وماذا فعلتم به؟

صرخَ الصوت بكُلِّ قُواه: قد مات، مات!

حزنت زينب حُزنًا شديدًا، لكنَّها لم تترك
وردها من القرآن الكريم، بل زادت منه
أكثر من ذي قبل، واستعانت باللهِ على

ختم القرآن مرّة أُخرى على الماء ومن
ثمّ الشراب منه.

عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ مَيَّزَهَا بِالْبَلَاءِ، وَاخْتَارَهَا
دُونَهَا عَنْ غَيْرِهَا لَخَوْضِ حَرْبٍ لَا يَقْوَى
عَلَى خَوْضِهَا إِلَّا هَا، حَمَدْتُ رَبَّهَا عَلَى مَا
أَرَادَ وَقَدَّرَ، وَقَرَّرْتُ أَلَّا تَتَرَجَّعَ لِلْوَرَاءِ
مَهْمَا حَصَلَ، بَلْ وَتَسْتَمِرْ مَهْمَا كَلَّفَهَا
الْأَمْرَ، فَإِنَّمَا أَنْ يَنْصُرَهَا اللَّهُ أَوْ يَنْصُرَهَا
اللَّهُ.

الفصل الثامن والعشرون

مرّت الأيام وقد زادت يقين زينب برّبّها،
وصارت أقوى من ذي قبل.

جلست لتتلو وردها من القرآن الكريم في
إحدى الصباحات، وما أن فعلت حتّى
شعرت بشيءٍ ينزل من أنفها، توقفت
على الفور، وتحسّسته بيدها فاذا بها
خيوط سوداء سواد حالك، تنزل من
دماغها على أنفها، صرخت وبكت
فجاءتها أمنة، لتتفاجأ بما يحدث لابنتها.

اقتربت منها وأخذت تُزيل عنها الخيوط
بمناديل مصنوعة من القماش، لكنّها لم
تستطع إنهاء تلك المأساة.

أثناء ذلك رنَّ الهاتف، أسرعتُ إليه
آمنة، رفعت السماعة فكان عابدين _أو
قُلْ مُنتحل شخصه، هو المُتصل.

آمنة: قد سحروا زينب بالسحر الأسود،
والخيوط التي تنزل من دماغها على
أنفها، هي من تأثير السحر.

آمنة بدهشة: وكيف عرفت؟

عابدين: عن طريق الكشف.

آمنة: كشف ماذا؟

عابدين: كشف الحجاب!

آمنة: إذا صدقَ مَنْ قالَ أَنَّ العِرقَ
دَسَّاس.

عابدين: ماذا تقصدين؟

آمنة: زوج خالتك.

عابدين: لم يَكُن يعلم ما أعلمه أنا الآن،
قد كان طيِّبًا ولم يَرَقْ للمكانة التي
وصلتُ إليها أنا.

آمنة: مَنْ هُم الذين سحروا ابنتي؟

عابدين: إخوتي وأخواتي هُم مَنْ سحروا
لها عند أحدِ القساوسة.

آمنة: وكيف عرفت؟

عابدين: قد كشفَ عنها سيدي العارف
بالله (تاج السرّ)، وقد أخبره الأسّياد
بالحقيقة.

آمنة: لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد.

عابدين: أعطني زينب، أريدُ أنْ أتحدّثَ
إليها.

آمنة: لكنّها لا تُريدُ التحدّثَ إليك.

عابدين: حاولي معها.

آمنة بصوتٍ حازم: دعها وشأنها ثم
أغلقت الهاتف.

تأكدَ لزينب ما كانت تخشاه؛ قد استحوذَ
الشَّيْطان على أبيها، فتلبَّسَ بهِ وصار
مُتَحَكِّمًا في جسده، هي لا تعرف أينَ
ومتى حَدَثَ لَهُ ذَلِكَ، لكنَّهُ هو يعلم تمام
المعرفة.

حاولت معه كثيرًا لكنَّهُ لم يستجب لها،
أرادت لَهُ الخير، وأرادَ لها الفسق،
والفجور، والعصيان؛ إذ أمرها في غيرِ
مرّةٍ بتركِ الحجاب، والخروجِ بلباسٍ
قصير، وبشعرٍ عارٍ، بالإضافةِ للإكتحال
والتزيّن، لكنّها أبت ودافعت عن مبادئها.

شاهدته في منامها، وقد عقد لها ستون
سحراً بالتهيج والوقوع في الفاحشة،
لكن الله قد سلسلها بسلاسل من حديد
نزلت عليها من السماء، فأخذت تصرخ
وتخور من فعل السحر، حتى نرفت
أنفها، استيقظت فشعرت ببلل بين
فخذيها، تبينته فإذا به دم كدم رُعاف،
أوجعها قلبها، أخذت تنزف في صمت
لثلاثة أيام بلياليهن الأربع، تضع من
القماش ما يحول بين نزفها وبين ما
ترتيبه من لباس داخلي، وتُصلي فرضها
وتذكر ربها.

مرت عليها تلك الفترة كأصعب ما يكون،
ضعف قلبها نتيجة ما فقدته من دماء،
لكنها لم تنقض عهدها مع ربها.

تبرأت من أبيها أمام الله كما تبرأ أبا
الأنبياء (إبراهيم) _ عليه السلام، من
أبيه، وأخبرت أمها بالحقيقة التي كشفها
الله على يديها، لم تُصدّقها آمنة في بداية
الأمر، لكنّها قد صدّقتها حين رأتها
تموت ببطءٍ بفعلِ السّحر.

سألتها عن ما إذا كان أعمامها وعمّاتها
يذهبون إلى السّحرة، فأجابتها آمنة
بأنّهم وإن كانوا لا يتقون الله، إلّا أنّهم لم
يذهبوا إلى السّحرة قط؛ إذ كانوا
يستعينون بعابدين ليفكّ لهم بعض
الأسرار!!

كان أهل البلدة يتبرّكون بعابدين، الذي
يصوم مُعظم الدهر، ويُصلّي مئات
الركعات في قيام الليل، ولا يقرب

الحرام، ويُزَيَّن جِيدَه بِسَبْحَةٍ قَدْ تَعَدَّتْ
الْخَمْسَةَ آلَافِ حَبَّةٍ.

أُولَئِكَ الْأَهْلُ، هُمْ بَعِيْنُهُمْ مَنْ يُرَحَّبُونَ
بِالسَّحَرَةِ وَالْمُشْعُوذِينَ، بَلْ وَيَفْتَحُونَ لَهُمْ
بُيُوتَهُمْ، وَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِمُ الْإِقَامَةَ!

قَدْ أَتَاهُمْ أَحَدُ الدَّجَاجِلَةِ، فَقَرَأَ لَهُمْ
الْكَفُوفَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا تَحْمِلُ بَطُونُ
نِسَاءِهِمْ مِنْ أَجْنَّةٍ، فَفَرَحُوا بِهِ، وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ قَدْ فُضِّلُوا عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْقُرَى
بِوُجُودِهِ بَيْنَهُمْ.

أَقَامَ بِبَيْتِ أَحَدِ كِبَارِ الْبَلَدَةِ، فَكَانَ يَتَنَاوَلُ
أَشْهَى الْأَطْعَمَةِ، وَيَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ
نَاعِمَةٍ، وَيَجْلِسَ بَيْنَ عِلِيَّةِ الْقَوْمِ، يَحْتَسِي
الْقَهْوَةَ تَارَةً وَالْعَصَائِرَ تَارَةً أُخْرَى، وَلَا
تَخْلُو لَهُ جُلُوسَةٌ مِنْ فُسَاءٍ أَوْ ضُرَاطٍ!

يُحْكِي أَنَّهُ قَدْ ضَرَطَ أَمَامَ الْجَمْعِ كَعَادَتِهِ،
لَكِنَّ أَحَدَ الْحُضُورِ قَدْ لَامَ عَلَيْهِ فِعْلَتَهُ،
فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرِّجَالِ يَضْرِبُونَهُ؛ لِسُوءِ
أَدَبِهِ مَعَ وَلِيِّ مَنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ،
بَلْ وَأَمْرُوهُ بِالْإِغْتِسَالِ وَنُطْقِ الشَّهَادَتَيْنِ،
لَأَنَّ إِنْكَارَهُ لَضُرَاطِ الْوَلِيِّ أَمَامَ النَّاسِ قَدْ
أَخْرَجَهُ مِنَ الدِّينِ!!!

كَانَتْ تِلْكَ الْبَلَدُ خِصْبَةً بِجَهْلِ أَهْلِهَا،
لَزَرَعَ أَيُّ مُعْتَقِدٍ بِهَا، وَجَعَلَهَا وَجْهَةً
لِلْمُسْتَغْلِينَ، وَالْمُتَاجِرِينَ بِدِينِ اللَّهِ.

كَانَتْ إِحْدَى الْغَجَرِيَّاتِ تَطُوفُ عَلَيْهِمْ كُلَّ
أُسْبُوعٍ؛ لِتُطَهِّرَهُمْ مِنَ الدِّيدَانِ، الَّتِي
تَسْكُنُ أَعْيُنَهُمْ، فَتَقْرَأُ عَلَيْهِمْ بَعْضَ
الطَّلَاسِمِ ثُمَّ تَأْمُرُهُمْ بِإِغْمَاضِ الْعَيُونِ،
وَمِنْ ثَمَّ تَضَعُ يَدَهَا فِي الدَّلْوِ الَّذِي

تحمّله، لتُخرج حفنة من الديدان،
وتُخبرهم بأنّها قد طهرتهم وأعينهم من
الشّياطين المتجسدة على هيئة ديدان!

لم يكن ما حدث لعابدين غريباً بالنسبة
لهم، بل إنّهم قد تصدّوا لزئب وأُمّها
حين أخبرت أهل العلم منهم بما حدث
لأبيها، وطلبت منهم أن يُعيدوه إلى
طريق الحقّ، فرفضوا وألقوا عليها
اللوم.

أنا القويّ المُتدّر، أنا العظيم المُعظم، أنا
الناصر لأتباعي والمنصور على مَنْ
عاداني.

أمرك بالحضور، ابني وولدي المغرور،
تعالى إليّ في الحال، فالأمور تسوء، هلُم
إليّ يا مزيون، الآن يا أبْدُون!

الفصل التاسع والعشرون

حضرَ عبدك المُطيع، وابنك الفريد، ها
أنا قد جئتُك مولاي، مُرني فأنا رهن
الإشارة.

ربتَ اللاشيء على كتفه وتابع: هذا هو
العشم بُني.

قد قتلت الفتاة بعضاً من بنو عمومك،
وأزعجت من بقي منهم، ففروا هاربين.

قام الساحر الماهر بعقد السحر الأسود
لها، أتعبها وأضعف قوتها في بادئ
الأمر، لكن سرعان ما استردت قوتها،
واستعادت طاقتها، وعادت لتهاجمنا من
جديد، خصوصاً بعدما كُشِفَ لها السر.

أَبْدُون بِصَوْتٍ غَاضِبٍ: وَمَنْ تَكُون تِلْكَ
الْأَدْمِيَّةُ حَتَّى تَفْعَلَ بِنَا مَا فَعَلْتَ؟

نَحْنُ أَسْيَادُ الْأَرْضِ وَمُلَّاكُهَا، وَهِيَ وَبَنِي
جَنْسِهَا قَدْ جَارُوا عَلَيْنَا، فَلْيَتَحَمَّلُوا نَتِيجَةَ
فِعَالِهِمْ.

ثُمَّ تَسْأَلُ بَعْدَ لِحْظَاتٍ: وَمَنْ الَّذِي فَضَحَ
أَمْرَنَا لَهَا؟

كَيْفَ عَرَفْتَ السِّرَّ؟

الْأَشْيَاءُ: قَدْ أَغْضَبْتُ أَخَاكَ الَّذِي تَلْبَسُ
بِجَسَدِ عَابِدِينَ، فَهَدَّدهَا بَعْدَ مَا أَخْبَرَهَا
بِالْحَقِيقَةِ.

أَبْدُون: مُرْنِي يَا مُوَلَايَ لِأَحْرِقَهَا حَرْقًا.

اللاشيء: الإذن والأمر لك ولدي، عليك
بها فوجودها يُمثّل خطرًا علينا وعلى
مُخططنا.

أَبَدُون: أمرٌ مولاي، سأجعلها تدم على
ما فعلته ببني عمومتي، سأقتلها بالبطى،
حتّى أنّها ستتمنى الموت ألف مرّة
باليوم.

أمّي ألم تسألني نفسك سؤال؟
قالتها زينب.

آمنة: أيّ سؤال زينبي؟

زينب: لماذا أسكننا أبي هذا البيت، الذي
لا يصلح للمعيشة الأدميّة ولا حتّى
الحيوانيّة؟

آمنة بعد برهة: لم زينبي؟

زينب: لأنَّه قد عاهدَ بنو إبليس بأنَّ
يكونَ بيتنا كالأخراية؛ كي يسهلَ عليهم
تنفيذَ مهمتهم في القضاءِ علينا، وإلاَّ فلا
عُذرَ له، إذ يعملُ منذُ زمنٍ ولا يُعطينا ما
افترضه اللهُ عليه من حقوق، بل
ويُحاربنا في ديننا.

آمنة تبكي ولا تردّ.

زينب: قد نظرتُ حولي فوجدتُ الدُّنيا
تتغيَّر ولا تثبت على حال، عدا وضعنا
الذي لا يتغيَّر ولا يمرُّ عليه الزمان،
وكأنَّنا نحيا بحلقةٍ مفقودةٍ بثقبٍ كبيرٍ
يتسع أكثر فأكثر لئبتلعا بالنهاية!

قد تطاولَ البُنيان من حولنا، ونحنُ الذينَ
أقمنا بهذه الأرض، حينَ كانت خاليةً إلاَّ
من النخيلِ والشَّيَاطينِ.

نَعِيشُ بِخَرَابَةٍ هِيَ الْمَكَانُ الْأَنْسَبُ لِمَرْدَةِ
الْجَنِّ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُبُورِ، فَهُنَا
أَمْوَاتٌ وَهُنَاكَ أَمْوَاتٌ!

بَيْتٌ يَسْكُنُهُ الْجَانُّ، وَالْحَشَرَاتُ
وَالزُّوَاحِفُ، بَلْ هُوَ مَلْجَأُ الْفُؤَيْسِقَةِ بِشَتَّى
أَنْوَاعِهَا.

بَيْتٌ يُتْلَى فِيهِ كَلَامُ اللَّهِ، وَتُقَامُ فِيهِ
الصَّلَوَاتُ، وَتُفْعَلُ بِهِ الطَّاعَاتُ، وَرَغْمَ
ذَلِكَ تَشْتَغِلُ بِهِ الْحَرَائِقُ النَّفْسِيَّةَ بِفِعْلِ
سَّحَرِ بَنُو إِبْلِيسَ.

بَيْتٌ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ مَا أَخَذَ أُمِّي، وَلَا زَالَ
طَامِعًا فِي الْمَزِيدِ.

بَيْتٌ أَقْمَنَّا بِهِ بِإِذْنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،
وَسَنُخْرِجُ مِنْهُ كَذَلِكَ بِإِذْنِهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى.

أَمْنَةٌ بَعْدَمَا تَتَّهَدَتِ وَالِدَمْعُ يَتَسَاقُطُ مِنْ
عَيْنَيْهَا: سَامِحِينِي يَا ابْنَتِي، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ
مَا يُخْبِأُهُ الْقَدَرُ لِي وَلَكُمْ.

زَيْنَبُ بَعْدَمَا عَانَقَتْهَا: عَلَى مَاذَا أُسَامِحُكِ
أُمِّي وَأَنْتِ أَوَّلُ مَنْ ظَلَمَ فِينَا؟!!

بَلْ أَنْتِ أَوَّلُ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهَا الْبَلَاءُ، لَا
تَحْزَنِي، وَاحْمَدِي اللَّهَ أَنْ أَنْارَ بِصِيرَتِكَ،
وَكَشَفَ لَكَ الْحَقِيقَةَ.

لَأَجْعَلَكَ تُقْسِمِينَ بِقَوَّتِي زَيْنَبُ.

قَالَهَا أَبَدُونَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَثْنَاءَ
نَوْمِهَا، ثُمَّ تَسَلَّلَ لِحُلْمِهَا عَنْ طَرِيقِ
عَقْلِهَا الْبَاطِنِ.

أَتَاهَا بِصُورَةٍ كَهْلٍ وَسِيمٍ، نَادَاهَا وَهِيَ
تَسِيرُ بِالطَّرِيقِ، اسْتَدَارَتْ لَتَنْظُرَ إِلَيْهِ
فَكَانَ أَمَامَهَا فِي لَمَحِ الْبَصَرِ.

يَتَنَفَّسُ أَنْفَاسَهَا، وَيَشْتَمُ شَعْرَهَا الْفَاحِمَ،
الطَوِيلَ الْمُسْتَرَسِلَ، فَزِعَتْ مِنْهُ وَحَاوَلَتْ
الْهَرَبَ، لَكِنَّهُ كَانَ قَدْ أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ عَلَيْهَا.

أَخَذَ يَنْظُرُ لَجَسَدِهَا نَظَرَاتِ الْجَائِعِ إِلَى
الْخُبْزِ، انْقَبَضَ قَلْبُهَا وَسَالَ دُمْعُهَا،
حَاوَلَتْ الصَّرَاحَ لَكِنْ صَوْتُهَا قَدْ تَخَلَّى
عنها!

بَدَأَ فِي تَجْرِيدِهَا مِنْ مَلَابِسِهَا، زَادَتْ
سُرْعَةَ نَبْضَاتِهَا، تَمَنَّتْ لَوْ مَاتَتْ قَبْلَ أَنْ
يَفْعَلَ بِهَا مَا يُرِيدُ، حَاوَلَتْ وَحَاوَلَتْ
وَحَاوَلَتْ، لَكِنْ كَيْفَ الْخِلَاصَ مِنْهُ وَقَدْ
سَيَّطَرَ عَلَيْهَا؟

قَاوَمَتْهُ بِقَلْبِهَا الْعَامِرَ بِحُبِّ خَالِقِهِ
وَمَوْلَاهُ، أَبَتِ الْخَنُوعَ وَالْإِسْتِسْلَامَ،

وتحوّلت نخوتها ودمائها الحُرّة لقوّة
عظيمة.

رددت بقرارة نفسها: لم ولن يمسسني
بشرٌّ على وجهِ الحرام، أما وإن كان
حُلماً سحقتُه بعونِ الله، واللهُ مُعين مَنْ
استعان.

اقتربَ بشفتيه مَنْ شفتيها مُحاولاً
تقبيلها، لكنّها قد قاومتُه، دعت ربّها أن
يحفظها وينصرها، حاولَ تجريدها الكامل
من ملابسها لكنّها صرخت به بعدما عادَ
إليها صوتها: خسئت وهلكت يا ملعون.

والذي خلقتني وخلقك بالحقّ، لأجعلنك
تُقسمُ بقوّتي!

ضحك أَبَدُون ضحك سُخرية، وتابع: ألم
تعلمي بأنك آدميّة؟

زَيْنَب: بلى، وهذا من فضلِ رَبِّي.

أَبَدُون: بل من سخطه يا حمقاء، فأنتِ
ضعيفة إلى الحدّ الذي يجعلك تخافين
منّي، رغم وسامتي وتجسّدي على هيئة
أدمي مثلك.

زَيْنَب: أنا لا أخشى إلّا الله.

أَبَدُون وهو يتجرد من ملابسه: سنرى يا
جميلة جميلات مَنْ عرفتِهِنَّ مَنْ
الآدميّات!

زَيْنَب بكُلِّ قُواهرها، والدمع يجري
بمُقلتيها: مدد يا ربّ.

قالتّها فتزلزلت الدُّنيا لها، وعلا صوت
الرعد وهو يُسبِّح بحمدِ ربّه، وهتف بها
هاتف أن اقرأ سورة الضحى.

بَسَمَلْتِ وَأَخَذْتِ تَتْلُو بِصَوْتٍ عَذْبٍ خَاشِعٍ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَالْيَلِّإِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا
وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ
لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدِّثْ ﴿١١﴾.

وما أن أتممت تلاوتها حتّى حضر أمامها
أحد ملوك الجنّ وأشدّهم بأسًا، وهو
الملك (أبا محرز الأحمر)، رآه أبَدُون

فاختفى على الفور قبل أن يدخل في قتالٍ معه.

استيقظت زينب من نومها مطمئنة، لما حققتهُ من نصرٍ مُبينٍ _بفضلِ ربِّها، على أبادُون، صلت فجرها بمعية أمِّها، بينما سالم وغانم قد ذهبَا لأداء الصلاة بالمسجد.

مرّت الأيام وحاولَ عابدين الدفاع عن ابنته، لكنّ اللاشيء قد تعقبه وحذره، وأخبره بأنّ العهدَ معهم لا يُنقض إلّا بخروج الروح.

اللاشيء: عابدين، ولدي المُطيع، رغم كونك آدميٍّ إلّا أنّك قد بلغت مكانة، لم ولن يبلغها أحد من بني مولانا المُعظم (إبليس).

عابدين: لکنَّها ابنتي.

اللاشيء: أَنْتَ مَيِّتٌ يَا عابدين، أَمَّا الَّذِي
أُخَاطِبُهُ الْآنَ فَهُوَ ابْنِي.

عابدين: لَكُنَّي لَا زَلْتُ حَيًّا!

اللاشيء: هَكَذَا تَشْعُرُ، لَوْ جُودَ ابْنِي
بِجَسَدِكَ، مَا أَنْتَ إِلَّا جَسَدٌ، جَسَدٌ بِلَا
رُوحٍ، وَالْجَسَدُ الَّذِي يَحْيَا بِلَا رُوحٍ لَهُوَ
جُثَّةٌ مَحْمُولَةٌ، تَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ بَيْنَمَا
قَدْ فَارَقَتْهَا الْحَيَاةُ.

عابدين: وَلَكِنْ....

اللاشيء مُقَاطِعًا بِصَوْتٍ غَاضِبٍ: لَا
تُجَادِلْنِي، وَتَعَلَّمْ مِنْ تَاجِ السَّرِّ كَيْفَ تَكُونُ
الطَّاعَةُ؟

قد أمرناه البارحة بإغتصاب طفلة لم
تتجاوز الثامنة، ثُمَّ ذبحها على إحدى
مقابر الفراعنة؛ ومن ثُمَّ فتح المقبرة
وخروج الكنوز من باطن الأرض ففعل.

كما أمرناه من قبل بالزنا بحلائل جيرانه
ومُرّديه، وفعل أيضًا، بل إنّه لم يتركهنَّ
حتّى حَبَلَنَ منه جميعًا!

عابدين: لكنّ مكاتني عندكم أعظم من
مكانته.

اللاشيء: لأنّك قد تعدّيت حدودًا فاقت ما
فعله مولانا المُعظم.

عابدين: كيف؟

اللاشيء: قد وُلدت مُسلمًا وخرجت من
الإسلام، ولا أفضل عندنا من فعل كهذا،

بَلْ إِنَّكَ قَدْ تَفَوَّقْتَ عَلَيْنَا نَحْنُ، وَنَحْنُ بَنُو
إِبْلِيسَ!

لِذَا قَدْ سَخَرْنَا مَوْلَانَا الْمُعْظَمَ (إِبْلِيسَ)
لِخِدْمَتِكَ، وَنَهَانَا عَنْ إِزْعَاجِكَ وَعَدَمِ
إِطَاعَةِ أَمْرِكَ، بَلْ إِنَّهُ قَدْ أَمَرْنَا بِالْحِفَاطِ
عَلَيْكَ مِنْ أَيِّ خَطَرٍ؛ لِأَنَّ الْبَنَ نَجِدُ مِثْلَكَ
أَبَدًا.

وَمَا نَفَعْلُهُ بِزَيْنَبَ مَا هُوَ إِلَّا مُحَاولَةٌ مِنَّا
لِلْحِفَاطِ عَلَيْكَ مِنْهَا، فَقَدْ صَارَتْ عِدْوَةٌ لَكَ
بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهَا الْحَقُّ، نَحْنُ نَحْمِيكَ بِطُرُقٍ
لَا تَفْهَمُهَا عَابِدِينَ.

عَابِدِينَ: لِمَ جَعَلْتُمُونِي أَقْومَ بِتَجْرِبَةٍ كُلِّ
مَا تَعَلَّمْتُهُ عَلَى أَمْنَةٍ وَأَبْنَائِي، وَخُصُوصًا
زَيْنَبَ، الَّتِي عَانَتْ وَلَا زَالَتْ تُعَانِي؟

اللاشيء: كي لا يفتضح أمرك ولتعلو
مكانتك، لم تَكُن لتصل إلى ما وصلت إليه
إلا بما فعلت.

عابدين: لم؟

اللاشيء: لأنَّ ظلمك للغريب يرفعك
عندنا درجة، بينما ظلمك لمن هم منك
ومن دمك، يرفعك عندنا إلى منزلة
مولانا المعظم (إبليس).

فَكَرَّ أَبَدُونَ كَيْفَ يَنْتَقِمُ مِنْ زَيْنَبَ فِي
الْوَاقِعِ قَبْلَ الْأَحْلَامِ، وَهَدَاهُ تَفْكِيرُهُ لِأَنَّ
يَتَجَسَّدَ لَهَا عَلَى هَيْئَةِ شَابٍّ وَسِيمٍ.

الفصل الثلاثون

كُتِفَ مِنْ مُفْزَعَاتِ الْأَحْلَامِ وَالْكَوَابِيسِ،
حَتَّى أَرَهَقَ قَلْبُهَا، وَأَصَابَهَا بِالْخَوْفِ مِمَّا
تُشَاهِدُهُ.

صَارَتْ حَبِيسَةَ الْكَوَابِيسِ خُصُوصًا أَثْنَاءَ
حَيْضِهَا، حَتَّى أَنَّ أَبَدُونَ قَدْ جَعَلَ يَنْتَظِرُ
فَتْرَةَ حَيْضِهَا كُلَّ شَهْرٍ؛ كَيْ يُعَذِّبَهَا
كَيْفَمَاءَ شَاءَ وَهِيَ لَا حِيلَةَ لَهَا وَلَا
شَفَاعَةَ.

فَتَارَةً يُحَاوِلُ الْإِعْتِدَاءَ عَلَيْهَا، لَكِنَّهَا
تَسْتَيْقِظُ قَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ مَا لَا تُرِيدُ، وَتَارَةً
يُرْهِبُهَا عَنْ طَرِيقِ ذَبْحٍ وَتَقْطِيعِ الْأَجْسَادِ
الْأَدْمِيَّةِ، وَهَكَذَا حَتَّى جَعَلَهَا تَكْرَهُ اللَّيْلَ
وَتَخْشَى النَّوْمَ!

تَجَسَّدَ لَهَا فِي صُورَةِ شَابٍّ وَسِيمٍ، يَعْمَلُ
بِالْوَحْدَةِ الصَّحِيَّةِ بِالْبَلَدَةِ.

قَدْ حَرَّكَ السِّحْرَ بِمَعْدَتِهَا فَاتَّعَبَ جَهَازُهَا
الْهَضْمِي، أَخَذَتْهَا أَمْنَةُ وَذَهَبَتْ بِهَا إِلَى
الْوَحْدَةِ الصَّحِيَّةِ، فَوَجَدَتْ طَبِيبًا وَسِيمًا،
قَدْ جَاءَ بَدَلًا مِنَ الطَّبِيبِ (سَعِيدٍ) تَخْصُصُ
بِاطْنِي عَامٍ.

سِيلَفِيَانَا ، أَيْنَ الطَّبِيبِ سَعِيدٍ؟

قَالَتْهَا أَمْنَةُ وَهِيَ تَسْنُدُ زَيْنَبَ.

سِيلَفِيَانَا : قَدْ تَمَّ نَقْلُهُ إِلَى الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ،
تَفَضَّلِي، فَحُضْرَةُ الطَّبِيبِ (عَلِيٍّ) مُوجُودٌ
بِالْدَاخِلِ.

أَمْنَةُ: أَهْوِ الطَّبِيبِ الْجَدِيدُ؟

سِيلَفِيَانَا : أَجَلْ خَالَةٍ.

دخلت آمنة عُرفة الفحص ومعها
سيلفيانا ، تُساعد زينب على الوقوف.
السّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته.
قالتها آمنة.

علي: وعليكم السّلام ورحمةُ الله
وبركاته، أهلاً وسهلاً بكِ يا خالة،
تفضّلي بالجلوس.

سيلفيانا : الخالة آمنة تُريد فحص ابنتها
زينب حضرة الطبيب.

علي مُبتسماً: حسناً، تفضّلي آنسة
زينب.

زينب بهمسٍ: أمّي لن أنكشفَ على
رجل.

آمنة: لا يوجد غيره بعدما أخذت الطبيبة
مادلين إجازة.

سيلفيانا : لا تقلقي، سأقوم أنا بفحصكِ.

استلقت زينب على سرير الفحص،
وأخذت سيلفيانا تضع سماعة الكشف
على بطنها دون أن تكشفها، بينما
الطبيب علي يسمع ما تُخبره به
السماعة دون النظر إلى زينب.

وبعد دقائق، كتب علي الدواء المناسب
لحالة زينب المرضية، وأخذ يحدثها بنبرة
هادئة حتى اطمأنت.

مرت الأيام وصارَ الطبيب علي هو
الوحيد العالم بحالة زينب، بل والمُعالج
لها، ثمّ تقدّم لخطبتها، رفضت في بادئ

الأمر؛ لعدم استعدادها نفسيًا، ولخوفٍ
عميقٍ يَقْظِنُ قلبها.

وافقت آمنة شريطة أن تكون الخطبة
خالية من إظهار الفرح؛ احترامًا لراجية
التي توفت قبل أربعة أشهر.

حاول معها علي كما أمرته آمنة، لكنّها
لم تستجب له، فتدخلت آمنة ونصحتها
بالموافقة المبدئيّة؛ إذ هو عريس فريد
من نوعه، وكى لا تسرقه إحداهنّ منها،
وافقت بناءً على رغبة أمّها.

لاحظت أنّ أبْدُون قد اختفى من أحلامها،
فلم يعد يُهاجمها مرّة أخرى فاستبشرت
بعليّ خيرًا.

مرّت أربعة أشهرٍ على خطبة زينب
وعلي، قد جعلها تتعلّق به بعدما أظهر

لها تقواه وورعه، كما قدّم لها قلبه
كهدية تليق بها، نظير أن تمكنه من
قلبها هي الأخرى.

مكنته من قلبها بعدما استشارت أمها،
لكن سرعان ما تغيّر عليها وتبدل حاله؛
إذ كان يطالبها بالتغزل به وهي الحيّة،
نهته عن تلك المطالبة لما فيها من
مخالفة للشرع الحنيف، لكنّه لم ينته، بل
راودها عن نفسها، وهنا تحقق حدسها،
وهو أن أبدون قد أرسله إليها!

لم تكن تعلم بأنّه هو أبدون، لكنّها منذ
البداية كانت قلقة بشأنه، لذا كان قرارها
بالرفض، لولا تدخل أمها، خوفاً من
التحدّث عنها لتأخرها في الزواج، فقد
تخطّت الثلاثون بعام.

يقولون بأن زينب قديمة جدًا، إذ وُلِدَتْ
قبل أن تصل الكهْرُبَاء إلى البلدة، وها
هي البلدة تُضاء بالأنوار وأعمدة
الكهْرُبَاء تُزيّن الشوارع!

أتاها أبَدُون بعدما كشفت حقيقته،
ليُخيفها أكثر.

قد شاهدته وهو يُمسك بنسخة منها،
بعدما جرّدها من ملابسها، فقام بشق
صدرها وأخرج قلبها، قلبًا نظيفًا جميلًا،
وأخذَ يقطعُه بساطورٍ حادٍّ.

صرخت زينب بكُلِّ قُواها: قلبiiiiiiiiiiبي!

جاءتها راجية فضربت يد أبَدُون فوق
القلب، أخذته وأعطته لزينب، وأمرتها
أن تهرب به، فعلت زينب ما أمرتها به

راجية، وهرولت وهي تحمل قلبها بين
كفيها!

هذه المرة لم تستيقظ زينب كعادتها؛ إذ
أصابها الإغماء بعد رؤيتها للكابوس،
حاولت آمنة أن توقظها لكنّها لم
تستجب.

أسرع سالم إلى الوحدة الصحيّة، لم يجد
غير سيلفيانا فقصّ عليها ما حدث، فما
كان منها إلّا أن أخذت بعض الأدوية،
وعادت معه إلى البيت.

أعطت زينب بعض منشطات القلب عن
طريق الوريد، وما أن فعلت حتّى عادَ
إليها وعيها من جديد.

أراك قد أحببتّها بُنيّ.

قالها اللاشيء.

أَبْدُون بِصَوْتٍ حَزِينٍ: لا، لَكِنَّ أَمْرَهَا
عَجِيبٌ.

اللاشيء: كَيْفَ؟

أَبْدُون: هِيَ طُهْرٌ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ
الْأَرْضِ، لَا تَتَغَيَّرُ أَوْ تَتَبَدَّلُ، بَلْ إِنَّهَا لَا
تَسْتَجِيبُ لِلْمُلُوثَاتِ، حَتَّى حِينَمَا تَجْسَدُ
فِي صُورَةٍ (عَلِي)، الشَّابَّ الْوَسِيمِ، الَّذِي
أَغْرَمَتْ بِهِ فَتَيَاتُ الْبَلَدَةِ، بَلْ وَرَاوَدْنَهُ عَنْ
نَفْسِهِ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجْعَلَهَا تَتَسَاهَلُ
وَتَقْبَلَ بِمَا حُرِّمَ عَلَيْهَا.

اللاشيء: تَذَكَّرِ النَّارَ لَا تُحِبُّ الطِّينَ، لَا
تَتَسَّ هَذَا الْأَمْرَ أَبَدًا.

أَبْدُون بِصَوْتٍ فَاتِرٍ: أَعْرِفُ ذَلِكَ جَيِّدًا.

اللاشيء: قَدْ أَرَهَقْتُكَ تِلْكَ الْفَتَاةَ، لَذَا فَأَنَا
أَعْفِيكَ مِنْ مَهْمَتِكَ، وَسَأَتَوَلَّى أَنَا قَتْلَهَا.

أَبْدُون بدهشة: ماذااااااااا؟

اللاشيء: كما سمعت.

أَبْدُون: أمرٌ مولاي.

ما رأي مولانا المُعظم في القضاء على
البشرية جمعاء، لا زينب وحسب؟

قالها اللاشيء.

إبليس: أوافق، ولكن كيف؟

اللاشيء: سننوحى لرجالنا من الإنس
بمخطط المليار الذهبي.

إبليس: ثُمَّ مه؟

اللاشيء: ثُمَّ نُساعدهم على تنفيذ
كتصنيع بعض الفيروسات القاتلة،
والأوبئة المُعدية؛ كي نختصر وقتنا
وجهدًا.

إبليس: رائع، وَمَنْ مِنْ أبنائي الإنسيين
المُكَلَّف؟

اللاشيء: بني صهيون، فشروطنا كُلُّها
تتطبق عليهم، كما أنَّهم مغرورون، لذا
سنُغريهم بحكم الأرض كُلِّها، وجعلها
تحت سيطرتهم، نظير تصنيعهم
الفيروسات القاتلة، وإباحة الشذوذ كي
نقطع النسل البشري، وكذا الحروب
المُدمِّرة بين الدول، لتتغذى نحنُ على
الطاقة السلبية الناتجة عنها.

إبليس بدهشة: وهل وافق المُغفلون؟

اللاشيء: أنتَ قتلتها يا مولانا، مُغفلون،
قد وافقوا واتفقوا معنا على البدء طليعة
عام ألفين وعشرون!

إبليس: وما الضمان الذي طلبوه منّا كي
يضمنَ لهم وعدنا؟

اللاشيء ضاحكًا بسخرية: لم يطلبوا
شيئًا يا مولانا، حتّى أنّني ظننتهم من
بني جنسك لا من الطين.

قهقهة إبليس وتابع: عجبًا لهم، يثقون بي
وأنا الغادر، ويغدرون ببعضهم وهم لأب
واحد وأمّ واحدة!!

اللاشيء: دعهم على عماهم يا مولانا،
سيُنفذون لنا مهمتنا في القضاء على
البشر، ثمّ نقضي عليهم نحن لتعود
الأرض لأصحابها الحقيقيين.

إبليس: وهو كذلك، ما دام البشر
يتناحرون فيما بينهم، فنحن في أمان.

جَلَسَ أَبَدُونٌ بَعِيدًا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: يَا لَكَ
مِنْ فَتَاةٍ قَوِيَّةٍ يَا زَيْنَبُ!

قَدْ هَزَمْتَ بَنُو إِبْلِيسَ، وَأَنْتِ الضَّعِيفَةُ
ابْنَةُ الطَّيْنِ.

بَلْ حَتَّى لَمْ تَسْتَسْلِمِي كَيْ تُرَحِمِي مِنْ
مُعَانَاتِكَ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ، بَلْ قَاوَمْتَ
وَقَاوَمْتَ، وَأَبَيْتِ الْخَنُوعَ، حَقًّا إِنَّ دَمَاعِكَ
لِحُرَّةٍ!

زَيْنَبُ حَسَنَاءُ الظَّاهِرِ، طَاهِرَةُ الْبَاطِنِ،
سَيِّدَةُ الْعَفَائِفِ.

أَهْ لَوْ كُنْتَ جَنِّيَّةً لَتَزَوَّجْتُ بِكَ عَلَى الْفُورِ،
لَكِنْ لَا شَيْءَ يَكْتُمِلُ، حَفْظُكَ رَبِّكَ مِنْ مَكْرِ
الْمَاكِرِينَ.

رَبِّكَ؟

قد طلبت منه زينب المدد فجاءها في
الحال، معنى هذا أن ربّها يرعاها،
ويُدافع عنها، بل ولم يخذلها أبدًا.

هل هذه ميزة قد اختصّها الله بها، أم أنّها
مُتاحة لسائر بني آدم؟

الله، لفظٌ مُطمئن لقلب زينب، حتّى قلبها
لا يحمل بداخله سوى هذا الاسم.

زينب، ماذا فعلت بي؟

ذهبت لأقتلكِ فقتلني حُبكِ يا ابنة الطين!

ما هذا الذي تقوله أبدوّن؟

انتبه لنفسك، فأنت مخلوق من النار،
وهي مخلوقة من الطين، كما أنّك كافر
وهي مُسلمة.

وبعد دقائق قال: الإسلام، أودُّ التعرُّف
على هذا الدين.

فَكَرَ فِيمَا مَن يُعِينُهُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، دُونَ
أَنْ يَعْلَمَ بِهِ اللَّاشِيءَ، فَكَانَ النَّفَرُ الَّذِينَ
اسْتَمَعُوا لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ثُمَّ أَسْلَمُوا.

ذَهَبَ إِلَيْهِمْ سَرًّا، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوهُ
مَا عَلَّمَهُمْ إِيَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، فَفَعَلُوا، وَأَسْلَمَ أَبَدُّونَ بَعْدَ بَضْعَةِ
أَشْهُرٍ.

تَوَقَّفَ الرُّوَايَ وَأَخَذَ يَبْكِي حَتَّى ابْتَلَّتْ
لُحَاهُ.

اِقْتَرَبَ مِنْهُ أَحَدُ الصَّبِيَّةِ، فَرَبَّتَ عَلَى كَتْفِهِ
بَحْنَانٍ بَالِغٍ، وَتَابَع: عَلَامَ الْبُكَاءِ مَوْلَانَا؟

الراوي بصوتٍ يقطعهُ البُكاء: على الظُّلم
بُنَيٍّ، أشدُّ ما يكون البلاء حينَ يُبتلى
المرء في دينه.

أحد الصبية: ماذا حَدَثَ لأبَدُون؟

الراوي بعدما كفَّ دمعُه: قد عَلِمَ أباهُ
بإسلامه فقتله، وماتَ على التوحيد.

أمَّا زينب فقد زادَ بلاؤها بعدَ موتِ
أَبَدُون، لكنَّها لم تستسلمَ لهم، وظلَّت
تُقاوم حتَّى وقفتْ أمامَ القاضي بإحدى
المحاكم؛ تُطالبُ بالقصاصِ من والدها،
الذي خانَ الأمانةَ فدَمَّرَ مُستقبلها،
وحرَمَها حقَّها في الحياة، وحرَّمَ عليها
ما أحلَّ اللهُ من الزواج، كما سلبها
أمانها، وتسبَّبَ في خوفها وذعرها، بل
وعادها في دينها.

ذرفت عيني القاضي، ورق لها قلبه،
لكنّه لم يأمر بالقبض على عابدين؛ لعدم
كفاية الأدلة!

زينب: سيدي القاضي، يعلم الله أنّ
موقفي هذا ثقیل على قلبي ثقل الجبال،
لكنّه الحقّ اسم الله، أمرنا بالسعي
والمطالبة بردّ الحقوق لأهلها، وأنا أهلها
سيدي القاضي.

قد أعطاني الله لأبي كآمانة سيُسأل عنها
أمامه سبحانه وتعالى، لكنّه وللأسفِ
الشديد قد خان الأمانة، حين عاذاها في
دينها، وبدلاً من أن يكون هو العون
والسند، كان هو المعول الذي هدم بنائي
النفسي قبل الجسدي!

سَيِّدِي الْقَاضِي، أَحْيَا طِيلَةَ عُمْرِي
بشعور اليُتم، لذا أطلبكم بالقصاصِ منه،
قد ظلمني في كُلِّ شيءٍ يا سَيِّدِي، حتَّى
جسدي قد أطلقَ عليه أَحَدَ خُدَّامِهِ من
مردةِ الجنِّ، فأكلوا لحمي وشربوا دمي.

ذابَ لحمي أمامَ عيني سَيِّدِي، قتلاني
ببطءٍ دونَ جنايتي، غيرَ أَنَّ اللَّهَ قد كشفَ
حقيقتهُ على يدي.

مددتُ إليه يدي بالخير، فقطعها بسيفِ
الغدر.

سَيِّدِي الْقَاضِي، اقتص لي منه؛ كي أحيا
كسائر البشر، اقتص لي منه، ليطمئنَّ
قلبي، ويرتاح عقلي، وتهدأ نفسي،
وتسكن روحي.

قد سرقَ صَّحتي وبعضَ عُمرِي سيدي
القاضي، قد سرقَ بسمتي وسعادتي،
وكادَ أن يسرقَ ديني لكنَّ اللهَ سلَّم.

وهل ردَّ لها القاضي حقَّها؟

قالها أحد الصبية.

الراوي مُبتسمًا: لا، لكنَّ اللهَ قد عوّضها
خيرًا، حينَ رزقها بزواجٍ تتكأ عليه، كانَ
لها بمثابة الجبر عن كُلِّ شيءٍ انكسرَ
بقلبها.

أحد الصبية: وكيفَ عرفتَ يا مولانا هذه
الرواية؟

ولماذا عنونتها لنا بمعبدٍ أبَدُون؟؟!

الراوي بنبرةٍ هادئةٍ: عرفتُها لأنَّ بطلتها
تكونُ أمِّي!

فأنا يحيى ابن أحمد ابن محمد ابن محمود، وابن زينب ابنة آمنة ابنة الشيخ زكريا أبي العُدة، ابنة راجية.

أما عن تسميتي لها بمعبد أبدو، فقد شعرتُ بأنَّ هذا العنوان هو الأقرب للمحتوى، ولتكن بمثابة رسالة لكل من تُسَوِّلُ له نفسه السير في طريق الضلال، والبُعد عن الخالق سبحانه وتعالى.

أحد الصبية: ماذا حَدَّثَ لعابدين؟

الراوي: الله أعلى وأعلم ولدي، لكنَّه قد اختفى واختفت معه مُعانة زينب، أهُم قتلوه، أم أنَّه قد تبخر حين كُشف أمره؟

الله أعلم، لكنَّ الحقيقة أنَّ أمثال عابدين يخشون الضوء؛ إذ هم كالخفافيش لا

يَرُونَ إِلَّا فِي الظَّلامِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَت الْحَقِيقَةُ،
أَعْمَاهُمْ ضَوْءُهَا الْوَهَّاجُ.

وَهَا أَنَا أُسِيرُ عَلَى دَرْبِ أُمِّي (زَيْنَب)
رَحِمَهَا اللَّهُ، لَذَا قَدْ قُمْتُ بِفَتْحِ الْمَسْجِدِ
رَغْمَ قَرَارِ الْأَوْقَافِ بِإِغْلَاقِهِ؛ مَنْعًا لِإِنْتِشَارِ
عَدُوِّ فَيروسِ كُورُونَا.

أَحَدُ الصَّبِيَّةِ: مَا الَّذِي دَفَعَكَ لِفَعْلِ هَذَا يَا
مَوْلَانَا؟

الرَّاهِي: لِأَنَّ الْمَسَاجِدَ هِيَ بِيُوتُ اللَّهِ فِي
الْأَرْضِ، كَمَا أَنَّهَا مَصَادِرُ مُتَجَدِّدَةٍ لِلتَّفَاوُلِ
وَالْأَمَلِ، فَلَمَّا نَقُومُ بِإِغْلَاقِهَا نُعْطِي فُرْصَةً
لِلشَّيْطَانِ بِتَقْوِيَةِ طَاقَتِهِ السَّلْبِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ
هَزِيمَتَنَا.

لَا تَحْزَنُوا يَا أَبْنَائِي، غَدًا أَلْقَاكُمْ وَأَرْوِي
لَكُمْ رَوَايَةَ أُخْرَى.

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ.

مریم توركان